الإمام علي عليه السلام

في قوتيه الجاذبة والدافعة

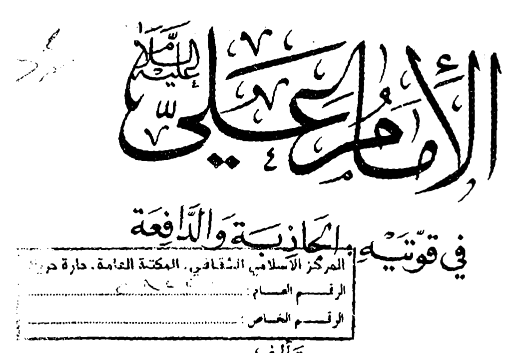


تأليف
الأستاذ مرتضى المطهري

ترجمة
جعفر صادق الخليلي

مؤسسة البعثة
بيروت


مكتبة نرجس PDF
www.narjes-library.blogspot.com



تأليف

الأستاذ مرتضى المطهري

ترجمة

جعفر صادق الخليلي

مؤسسة البعثة

بيروت

الطبعة الأولى

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

الطبعة الثانية

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

مؤسسة البعثة للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان - بيروت - حارة حريك - بناية غاردن بالاس - ص.ب: ٢٤/٨

بسم الله الرحمن الرحيم

ثمة عناوين أو موضوعات يعجب المرء من أنها معين لا بنضب : النبي الأكرم (ص)، القرآن المجيد ، الإمام الوصي أبو الحسن (ع) ، نهج البلاغة ، شهادة الحسين (ع) . . . الخ الخ . . . موضوعات كُتبَ ويُكتب فيها وفي مثيلاتها منذ قرون وما تزال ، ومع ذلك فأنت واجدٌ فيها دائماً ميداناً لقول ، ومجالاً لجديد .

واضح مقصودنا من هذا التمهيد للكتاب في الإمام علي (ع) ، وهو أن أبا الأئمة الأطهار شخصية فذة خارقة ، تأتيها كل حين فتراها أقيانوساً بلا حدود في عمقه ، وفي ساحله تجد فيضاً من الدرّ أو من الصيد بلا منتهى ، وتؤوب من شاطئه وجرابك دائماً مليء ، وشبكتك حبلى ، ونفسك رضية ، وأنت بحبه وبالانتساب إلى محبيه فخور . على أن الموضوع الذي طرقه المؤلف المبدع العلامة الأستاذ الشيخ مرتضى مطهري الذي جمع إلى فخر مداد العلم فخر دم الشهادة ينم عن دقة في النظر ،

وبراعة في اصطياد الجوانب الثرية في شخصية الإمام ، فهو في هذا الموضوع البكر ، يرينا الجوانب التي تدفعك في شخصية الأمير (ع) إلى كل ما هو خير ونبل وجمال ، والجوانب التي تنفرك من كل ما هو شر وحقارة وقبح ، وليس أدل على نجاح الموضوع ونجاح الكاتب من أن الكتاب نفد بسرعة .

ومن هنا أن مؤسستنا التي تفتخر بحمل رسالة تعريف الإسلام وجمالاته إلى أوسع مديات المعمورة وبمعظم لغاتها الفاعلة الواسعة الإنتشار ، تشعر بالرضى بل بالسعادة حقاً لأن هذا الكتاب كان في منشوراتها الأولى في فرعها في لبنان ، ولأنها تبادر إلى إعادة طبعه بعد أمد قليل من طبعه الطبعة الأولى ، آملة كما تتوقع أن يكون فيه مزيد خير في مزيد تعريف بأبي الأئمة الأطهار ، وأن يكتب لنا الله بذلك الأجر الذي نأمل أن نكون أهلاً له ، وهو المقصد أولاً وأخيراً ، وبه الرجاء ومنه التوفيق !!.

مؤسسة البعثة

بيروت

تقديم

إن شخصية الإمام علي (ع) العظيمة الرحبة لأوسع وأشمل من أن يستطيع فرد بمفرده أن يجول فيها بفكره ليحيط بها من جميع الجوانب والأطراف . إن أقصى ما يستطيعه المرء هو أن يقنع بتناول جانب واحد أو عدد محدود من جوانب شخصيته بالمطالعة والدرس .

ومن جوانب هذه الشخصية العظيمة ذلك الجانب الذي يكشف عن تأثيره في الناس تأثيراً موجباً أو سالباً . وبعبارة أخرى هو ما في الإمام من قوة « الجذب والدفع » الكبيرة التي ما زالت تعمل عملها حتى الآن، وهي ما سوف يتناوله هذا الكتاب بالبحث .

من البديهي أن يتباين الناس من حيث ما يثيرونه من ردود الفعل عند الآخرين . وكلما كانت الشخصية أضعف كان

انشغال الآخرين بها أقل وما تثيره في القلوب من التهيج والإثارة أدنى . وكلما كانت الشخصية أعظم وأقوى كانت أقدر على استثارة المشاعر وإبراز ردود الفعل ، سواء كانت مؤيدة أم مخالفة .

إن الشخصيات التي تثير الخواطر وتستدعي ردود الفعل تلهج بذكرها الألسنة كثيراً ، وتكون موضع جدل ونقاش وخصام ، وتتخذ أغراضاً للشعر والرسم والفنون الأخرى ، وأبطالاً للروايات والقصص . هذه أمور نجدها كلها قد تحققت في حدودها العليا بشأن علي (ع) ولم ينافسه في ذلك أحد ، أو نافسه أفراد معدودون .

يقال إن محمد بن شهرآشوب المازندراني ـ الذي كان من أكابر علماء الإمامية في القرن السابع ـ عندما أقدم على تأليف كتابه المعروف « المناقب » كان في مكتبته ألف كتاب باسم « المناقب » كتبت كلها في علي (ع) .

هذا نموذج واحد يدل على مدى انشغال الخواطر بهذه الشخصية العظيمة السامية على امتداد التاريخ .

إن الميزة الرئيسة التي يمتاز بها علي عليه السلام وسائر الذي أضاءوا بنور الحق ، هي أنهم ـ فضلاً عن اشغالهم الخواطر والأفكار ـ كانوا يفيضون على القلوب والأرواح النور

والحرارة والحب والنشاط والإيمان والثبات .

إن **فلاسفة** مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو وابن سينا وديكارت ما زالوا يستحوذون على أفكار الناس وخواطرهم .

وإن **قادة الثورات الاجتماعية** ـ وعلى الأخص في هذا القرن ـ أثاروا في مؤيديهم ضرباً من التعصب .

و**رجال التصوف** استطاعوا أن يحملوا أتباعهم على الرضوخ لحالة « التسليم » بحيث لو أن « صاحب الحانة أومأ لهم لصبغوا السجادة بالخمر »[1] .

إلا أننا لا نرى في أي من أولئك تلك الحرارة المصحوبة بالليونة واللطافة والصفاء والرقة التي يدور فيها الكلام على علي (ع) في التاريخ . فالصفويون الذين أنشأوا من الدراويش جيشاً جراراً من المجاهدين، إنما أنشأوه باسم علي لا بأسمائهم .

إن الحسن والجمال المعنويين اللذين يخلقان المحبة والخلوص ينشآن من مقولة واحدة . . بينما السلطة والمنفعة والمصلحة الحياتية التي هي بضاعة القادة الاجتماعيين ، أو التعقل والتفلسف اللذين هما بضاعة الفلاسفة ، أو إثبات السلطة والاقتدار الذي هو بضاعة المتصوفة . . . من مقولة أخرى .

---

(١) هذا تضمين لأحد أبيات الشاعر حافظ الشيرازي ـ المترجم .

لقد جاء أن أحد تلامذة ابن سينا كان يقول له : لو أنك بهذا الذكاء والفهم الخارق للعادة ادعيت النبوة لالتف حولك الناس . إلا أن ابن سينا لم يكن يرد عليه بشيء . حتى جمعتهما سفرة في أيام شتاء . وعند الفجر من إحدى الليالي أيقظ ابن سينا تلميذه وطلب منه أن يأتيه بقليل من الماء لإرواء عطشه . فراح التلميذ يتعلل وينحت الأعذار لكيلا يغادر فراشه الدافىء في تلك الليلة الباردة على الرغم من كثرة إلحاح أستاذه عليه . وفي تلك اللحظة ارتفع صوت المؤذن من المئذنة (الله أكبر . **أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله**) فاغتنم ابن سينا الفرصة وقال لتلميذه : ألم تكن تحرضني على ادعاء النبوة وتقول : إن الناس سوف يؤمنون بي ويتبعونني ؟ ولكنك ـ وأنت تلميذي منذ سنوات ، وقد استفدت من دروسي ـ لم يكن لي عليك ذلك النفوذ الذي يخرجك من فراشك دقائق معدودة لتأتيني بالماء . ولكن هذا المؤذن يصدع بأمر نبيه بعد أربعمائة سنة فينهض من نومه الهنيء وفراشه الدافىء ليصعد المئذنة ليشهد بوحدانية الله وبرسالة محمد (ص) ، فانظر ما أبعد الاختلاف ! .

نعم . . إن الفلاسفة يصنعون التلاميذ لا الأتباع ، والقادة الاجتماعيون يصنعون الأتباع المتعصبين ، لا الناس المهذبين ، وأقطاب التصوف ومشايخ العرفان يصنعون المستسلمين ، لا

المؤمنين المجاهدين النشطين .

ولكن في علي (ع) اجتمع فعل الفيلسوف ، وفعل القائد الثوري ، وفعل شيخ الطريقة ، وفعل يشبه فعل الأنبياء . . مدرسته مدرسة العقل والفكر ، ومدرسة الثورة ، ومدرسة التسليم والانضباط ، ومدرسة الحسن والجمال والانجذاب والحركة .

إن علياً (ع) قبل أن يكون إماماً عادلاً للناس ويحكم بينهم بالعدل ، كان إنساناً متعادلاً متوازناً في ذاته ، يجمع فيها الكمالات الإنسانية كلها . . كان إلى جانب عمق تفكيره وبعد نظره يتمتع بمشاعر عاطفية رقيقة . جمع كمال الجسم إلى كمال النفس . كان في الليل ينقطع عن كل أمر للتعبد ، وفي النهار ينشط في كل عمل اجتماعي . كانت عيون الناس ترى منه في النهار التضحية والمواساة ، وتسمع منه آذانهم النصيحة والموعظة والحكمة . وفي الليل كانت عيون الأنجم ترى دموع تعبده ، وتسمع آذان السماء مناجاته الوالهة . كان المفتي والحكيم ، وكان الصوفي والقائد الاجتماعي ، وكان الزاهد والجندي ، وكان القاضي والعامل ، وكان الخطيب والكاتب ـ لقد كان الإنسان الكامل بكل ما فيه من حسن وجمال .

* * *

هذا الكتاب يتألف من أربع محاضرات ألقيت في (حسينية

إرشاد) من ١٨ حتى ٢١ من شهر رمضان المبارك في سنة ١٣٨٨ هـ . وقد أقيم الكتاب على مقدمة وفصلين :

في المقدمة جرى بحث كلي بشأن الجذب والدفع عموماً ، أو بشأن جذب الإنسان ودفعه خصوصاً .

وفي الفصل الأول يجري الكلام على قوة جاذبية علي (ع) التي جذبت ـ ولم تزل تجذب ـ القلوب إليه ، وفلسفة ذلك ، وفائدته وأثره .

وفي الفصل الثاني نتناول قوة دفع الإمام (ع) وكيف كان يطرد بها بعض العناصر بكل مشقة . فقد ثبت أن علياً (ع) كان ذا قدرتين ، وأن على من يرغب أن يتربى في مدرسته أن يكون ذا قدرتين أيضاً .

ولما لم يكن يكفي أن يكون المرء مزدوج القدرة فحسب لكي ينتمي إلى مدرسة الإمام علي (ع) ، فقد سعينا جهدنا في هذا الكتاب أن نبين من أي طراز هم أولئك الذين تجذبهم قوة جاذبية الإمام ، وأي نوع من الناس تطردهم قوة دفعه . وما أكثر الذين يدّعون أنهم من أتباع مدرسته ولكنهم يعملون على دفع الذين كان علي (ع) يجذبهم ، وجذب الذين كان يدفعهم .

عند الكلام على قوة دفع علي (ع) اكتفينا ببحث ظاهرة الخوارج ، على الرغم من وجود طبقات أخرى تشملهم قوة دفع

علي (ع) ، ولعلنا نوفق إلى معالجة هذا التقصير مثل غيره مما في هذا الكتاب ، في وقت آخر ، أو في الطبعة الأخرى لهذا الكتاب .

لقد تحمل متاعب إصلاح هذه المحاضرات وإكمالها الأخ الفاضل حضرة السيد فتح الله الأميدي ، فنصف الكتاب بقلمه ، فبعد أن نقله من أشرطة التسجيل على الورق ، عاد فكتبه بقلمه أو أصلحه وأكمله . أما النصف الآخر فقد أمليته بنفسي ، أو قمت بإضافة بعض الأمور بعد أن قام الأخ الفاضل بإعداده وإصلاحه . وإني لأرجو أن يكون للكتاب بمجموعه أثر تعليمي نافع ، سائلاً الله تعالى أن يجعلنا من أتباع علي (ع) الحقيقيين .

مرتضى مطهري

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْمُـؤْمِنُونَ وَالْمُـؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَـأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُـونَ الصَّلاةَ وَيُـؤْتُونَ الـزَّكَاةَ وَيُـطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُـولَـهُ أُولئِـكَ سَيَـرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَـزِيـزٌ حَكِيمٌ ﴾ (سورة التوبة : الآية ٧١) .

﴿ الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ﴾ (سورة التوبة: الآية ٦٧) .

المقدمة

- قانون الجذب والدفع .
- الجذب والدفع في عالم الإنسان .
- اختلاف الناس في الجذب والدفع
- عليّ - الشخصية ذات القوتين .

قانون الجذب والدفع

قانون الجذب والدفع قانون عام يسود سائر أجزاء نظام الخلق . فالعلوم المعاصرة ترى أن كل ذرة من ذرات عالم الوجود تقع ضمن دائرة حكم الجاذبية العامة ولا تخرج عنه ذرة واحدة . فالأجسام ـ أكبرها وأصغرها ـ تملك هذه الطاقة الغامضة التي تسمى الجاذبية ـ أو قوة الجذب ـ وتقع تحت تأثيرها أيضاً .

لم يكتشف الإنسان في عهوده السابقة قانون الجاذبية العام في العالم ، ولكنه عرف بوجود هذه الحالة في بعض الأجسام . وكان يرى في بعضها نماذج لذلك ، مثل المغناطيس والكهرباء . ومع ذلك فهو لم يعرف مدىٰ تأثير جذبها على جميع الأجسام ، بل أدرك علاقة الجذب التي تربط ـ مثلاً ـ بين المغناطيس والحديد ، أو بين الكهرباء والقش .

فإذا تغاضينا عن كل ذلك ، نجد أنهم لم يقولوا بوجود هذه

الطاقة في سائر الأشياء ، سوى الأرض التي فسروا وقوفها في الفضاء بكونها هدفاً للجذب من جميع الجهات بدرجة متساوية ، ولذلك فهي معلقة في الفضاء من غير أن تميل إلى جهة من الجهات . وكان بعضهم يعتقدون أن السماء لا تجذب الأرض بل تدفعها ، ولكون قوة الدفع تصل إلى الأرض من جميع الجهات بمقادير متساوية ، فإنها تظل ساكنة في نقطة معينة ولا تغير مكانها .

الجميع يقولون ـ أيضاً بوجود قوة الجذب والدفع في النباتات والحيوانات ، وذلك يعني عندهم أنها تملك القوى الأصلية الثلاث : قوة التغذية ، وقوة النمو، وقوة التوالد . وكانوا يقولون بأن لقوة التغذية فروعاً أخرى ، مثل القوى الجاذبة والدافعة والهاضمة والماسكة . وأن في المعدة قوة جاذبة تجذب الغذاء نحوها ، وإذا لم تجد الغذاء مناسباً دفعته بعيداً . وأن في الكبد قوة جاذبة تجذب إليه الماء[1] .

(١) أما اليوم فيعتبرون بنية الجسم كالماكنة ، ويرون عملية الدفع كعمل المضخة .

الجذب والدفع في عالم الإنسان

ليس المقصود من الجذب والدفع هنا ذلك الجذب والدفع الجنسي ، وإن يكن هذا ـ أيضاً ـ ضرب من الجذب والدفع الذي يعتبر موضوعاً قائماً بذاته ، إنما المقصود هو ذاك الجذب والدفع اللذان يقعان بين الناس في الحياة الاجتماعية . ولا نعني بذلك التعاون القائم بين الناس على تبادل المنافع ، فهذا ـ أيضاً ـ ليس موضوع بحثنا .

إن جانباً كبيراً من الصداقة والمحبة ، أو من العداء والكره ، يعتبر من مظاهر جذب الإنسان ودفعه . وهو قائم على أساس من التماثل والتشابه ، أو على أساس من التضاد والتنافر . وفي الواقع ينبغي البحث عن أسباب الجذب والدفع في السنخية والتنافر ، مثلما يقال في الفلسفة : إن التماثل علة الانضمام .

قد نلاحظ شخصين ينجذب أحدهما للآخر ، ويحبان أن

يبقيا معاً صديقين . إن لهذا دلالته ، وهي ليس إلا التماثـل ، إذ لولا وجود التشابه بينهما لما انجذب أحدهما إلى الآخر ولما رغبا في أن يكونا رفيقين . وعليه ، فإن التقارب بينهمـا دليل على أن هناك ضرب من التشابه والتماثل بينهما .

في الكتاب الثاني من المثنوي حكاية طريفة :

رأى حكيم غـراباً ولقلقـاً قد عقـدا بينهمـا عهـد صـداقـة ، فيحـطان معـاً ويـطيـران معـاً ! هـذان الـطائـران ، من نـوعين مختلفين ، فـالغـراب . . لا لـونـه ولا شكله يشـابهـان اللقلق ، فأخذه العجب : لماذا الغراب واللقلق ؟! فـاقترب منهمـا فرأى أنهم أعرجان .

إن اشتـراك هذين النـوعين المختلفين من الطيـور في هـذه العاهة هو الذي جعل أحدهما يأنس بالآخر . كذلك الإنسـان لا يألف إنساناً آخر بغير علة ، ولا هو يعاديه بغير علة أيضاً .

يرى بعضهم أن أصل هذا الجذب والدفع هو الحاجة ورفع الحـاجة . الإنسـان كائن محتـاج ، فقد خلق محتـاجاً ، فيسعى بمحاولاته لكي يمـلأ فراغـاته ويسـد حاجـاته . إلا أن هـذا غير ممكن مالم ينضم إلى جماعة ويبتعد عن جمـاعة ، فينتفـع بهذا الانضمـام من جماعـة ، ويدرأ عن نفسـه ضرر جمـاعـة أخرى، فلست ترى فيه نزوعاً ولا عزوفاً إلا وهو نابع من مصلحته .

وعليه فإن الضرورات الحياتية ـ وبناءه الفطري ـ قد أوجدت فيه قوتي الجذب والدفع لكي يلتئم مع ما يحس فيه بالمنفعة ، ويبتعد عما لا يجد في نفسه ميلاً إليه . . وأن يظل عديم الإحساس إزاء ما هو ليس من ذلك ، فلا هو بنافع ولا هو بضار .

في الحقيقة ، إن الجذب والدفع من الأركان الأساسية في حياة الإنسان ، وبقدر إصابتهما بالضعف يصاب نظام حياته بالخلل ، ومن كانت له القدرة على ملء الفراغات استطاع أن يجذب الآخرين نحوه . أما الذي هو فضلاً عن كونه لا يستطيع ملء الفراغات ، بل يزيد من عددها ، فإنه يدفع الناس ويبعدهم عنه . وكذلك اللاأباليون .

اختلاف الناس في الجذب والدفع

إن الأفراد ليسوا متساوين من حيث قواهم الجاذبة والدافعة بالنسبة للآخرين ، ويمكن تصنيفهم إلى عدة أصناف :

١ ـ صنف لا جذب فيهم ولا دفع . لا يحبهم أحد ولا يبغضهم أحد ، فلا هم يستثيرون حب أحد وميله إليهم ولا عداوته أو حسده وحقده ونفوره . يمشون بين الناس لا يبالون بشيء ، فهم أشبه بقطعة حجر تتحرك بين الناس .

وهذا كائن مهمل ولا أثر له . إن امرءاً ليس فيه أي تأثير إيجابي (ليس المقصود بالإيجابي الفضيلة وحدها ، بل الرذيلة مقصودة أيضاً) ليس سوى حيوان يأكل وينام ويتحرك بين الناس . إنه كالشاة التي لا تحب أحداً ولا تعادي أحداً ، فإذا ما عني بها من حيث تقديم العلف والماء كان ذلك لكي يستفاد من لحمها . إنه لا يثير موجة تأييد ولا موجة معارضة . . هذا وأمثاله

صنف يمثل كائنات لا قيمة لها ، قشورا فارغة ، فالإنسان يريد أن يحب ويريد أن يكون محبوباً . . بل قد يريد أن يعادي وأن يعادى أيضاً .

٢ ـ وهناك من يملك قوة الجذب ولكنه يفتقر إلى قوة الدفع . إنه يأتلف مع الجميع ويحتضنهم جميعاً ويحمل الناس من مختلف الطبقات على التعلق به . إنه محبوب الجميع في المجتمع ولا يستنكره أحد . وإن مات غسله المسلمون بماء زمزم إن كان مسلماً ، وأحرق جسده الهندوس إن كان هندوسياً . يقول الشاعر الفارسي ما ترجمته :

(كن حسن الخلق ـ يا عرفي ـ مع الصالح والطالح ، فعند موتك يغسلك المسلمون بماء زمزم ويحرق الهندوس جسدك)[١] .

فهذا الشاعر يرى أنك إن عشت في مجتمع نصفه من المسلمين الذين يغسلون موتاهم ، وإن احترموهم فيغسلوهم بماء زمزم ، ونصفه الآخر من الهندوس الذين يحرقون موتاهم

---

(١) عرفي شاعر إيراني عاش في القرن العاشر كان يختلف إلى بلاط الامبراطور أكبر في الهند .

ويذرون رماد أجسادهم في الريح ، فعليك أن تتخلق بأخلاق يراك فيها المسلمون واحداً منهم فيهرعون لغسلك بماء زمزم عند موتك ، ويراك فيها الهندوس واحداً منهم فيسعون لحرق جسدك بعد موتك احتراماً لك .

يرى الناس ـ في الأعم الأغلب ـ أن حسن الخلق وطيب المعاشرة ، أو بحسب التعبير المعاصر « **أن يكون المرء اجتماعياً** » هو أن يفوز المرء بحب الجميع .

إلا أن هذا غير ممكن للشخص الذي يعمل من أجل هدف معين ويسير في المجتمع بحسب سلوك معين ، ووفق فكرة خاصة ، ويتطلع إلى مثال بعينه ، وليس همه السعي وراء منفعته الذاتية . إن إنساناً هذا شأنه لا بد أن يكون ذا وجه واحد حاسماً وصريحاً ، شاء ذلك أم أبى ، مالم يكن منافقاً مزدوج الشخصية .

وذلك لأن الناس لا يفكرون بطريقة واحدة ، ولا يتشابهون في مشاعرهم ، ولا في رغباتهم وأهوائهم . . إن فيهم العادل ، وفيهم الظالم . فيهم الصالح ، وفيهم الطالح ، كما أن في المجتمع المنصف ، والمعتدي ، والعادل ، والفاسق . فليس من الممكن أن يجتمع هؤلاء على حب شخص بعينه ، وهو يسعى للوصول إلى هدف لا يستهوي الجميع فيصطدم ـ حتماً ـ

مع مصالح بعض دون بعض .

إن الشخص الوحيد القادر على جذب حب الناس جميعاً ـ على اختلاف طبقاتهم ومثلهم واتجاهاتهم ـ هو المرائي الكذاب الذي يظهر لكل شخص ما يحب أن يسمع ويرى .

أما إذا كان المرء ذا وجه واحد وسلوك واحد ، فلا شك في أن جمعاً من الناس سيكونون من أصدقائه ، بينما سوف يعاديه جمع آخر . فالذين يتجهون وجهته سينجذبون إليه ، والذين يختلفون معه في وجهة نظره سوف يطردونه ويحاربونه .

بعض المسيحيين الذين يقولون عن أنفسهم وعن دينهم : إنهم يبشرون بالمحبة ، يزعمون أن الإنسان الكامل لا يملك سوى المحبة ، ولا شيء غيرها . أي إن فيهم قوة الجذب فقط . ولعل بعض الهندوس يدعي الشيء نفسه .

إن ما يلفت النظر كثيراً في الفلسفات المسيحية والهندية هو المحبة . إنهم يقولون : إن على المرء أن يميل إلى كل شيء وأن يظهر حبه له . فإذا نحن أحببنا الجميع لا يكون هناك ما يمنع من أن يحبنا الجميع ، بما فيهم الأشرار الذين لم يروا منا غير الحب .

إلا أن على هؤلاء أن يدركوا أن مجرد كون المرء من أهل

المحبة لا يكفي ، إذ عليه أن يكون ذا مسلك أيضاً . وقول غاندي « هذا هو مذهبي » يعني أن المحبة يجب أن تصاحب الحقيقة ، فإذا صاحبت الحقيقة ، لا بد أن تكون وفق سلوك معين ، وكونك ذا سلوك معين سوف يخلق لك الأعداء شئت أم أبيت ، وهذا في الواقع هو قوة الدفع التي تحمل عدداً من الناس على الاعتراض والمعارضة وتطرد عدداً آخر .

الإسلام ـ أيضاً ـ قانون المحبة ، وهذا القرآن يقدم النبي الكريم (ص) على أنه رحمة للعالمين :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾[1] .

أي إنك رحمة حتى على أعدى أعدائك[2] .

بيد أن الحب الذي يقول به القرآن لا يعني أن نعامل كل

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية ١٠٧ .

(٢) بل لقد شمل حبه كل شيء ، حتى الحيوانات والجمادات ، لذلك نرى في سيرته أن لكل ممتلكاته أسماء خاصة بها : خيوله وسيوفه وعمائمه إلخ . وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على وجود علاقة بينه وبين الكائنات الأخرى وهي كلها موضع حبه ، وكأنه كان يرى لكل شيء شخصية قائمة بذاتها . إن التاريخ لا يذكر عن وجود مثل هذا السلوك في شخص آخر . والحقيقة أن هذا السلوك يحكي عن كونه كان رمز الحب والمحبة الإنسانية . مرّ يوماً بجبل أحد فنظر إليه بعينيه المشعتين المليئتين بالمحبة وقال : « **جبل يحبنا ونحبه** » . هذا إنسان يفيض حبه حتى على الحجر والجبل .

شخص على وفق هواه ورغبته ، فلا نفعل إلا ما يحوز رضاه ويجذبه حتماً نحونا . ليست المحبة أن نترك كل امرىء حراً فيما يشاء ويهوى ونؤيده في ذلك . ليس هذا من المحبة في شيء ، بل هو النفاق والازدواجية .

المحبة تصاحب الحق وتوصل الخير ، بل قد يكون إيصال الخير بطريقة لا تستجلب رضا الطرف الآخر ومحبته . ما أكثر الذين يوصل الإنسان لهم الخير عن هذا الطريق ، إلا أنهم إذ يرونه يخالف رغباتهم يعادونه بدل أن يحبوه .

ثم إن المحبة المنطقية والعقلائية هي التي يكون فيها خير المجتمع وصلاحه ، لا خير فرد واحد ، أو طبقة بعينها . فكثير من المحبة التي تولى للأفراد والخير الذي يوصل إليهم يكون سبباً في إيصال الشر والضر إلى المجتمع .

في التاريخ مصلحون عظام سعوا إلى إصلاح شؤون المجتمع وتحملوا في سبيل ذلك أنواع العذاب ، ولكنهم لقاء ذلك لم يجدوا من الناس سوى الإيذاء والحقد .

وعليه فالمحبة لا تعني الجذب دائماً ، فقد تظهر المحبة أحياناً بصورة قوة دافعة عظيمة تثير الجماعات ضد الإنسان .

كان عبد الرحمن بن ملجم المرادي من أعدى أعداء علي

(ع) وكـان علي على علم تام بمـا يحمله له هـذا الإنسـان من عـداء وخطر ، وكـان بعض أصحاب علي (ع) يقـولـون لـه ، أيضاً : إنه إنسان خطر ، فتخلص منه . إلا أن علياً كان يقول : **أقصاص قبل الجناية** ؟ إذا كان هذا قـاتلي ، فإني لا أستـطيع أن أقتله . إنـه هو قـاتلي ولست أنا قـاتله . ولقد قـال عنـه يـومـاً : « **أريد حياتـه ويريـد قتلي** »[1] فأنـا أتمنى أن يبقى حياً ، وأحب أن يكـون سعيداً ، ولكنـه يـريـد قتلي . . إنني أكن لـه المحبـة والود ، وهو يكن لي العداوة والحقد .

ثم إن المحبـة وحدهـا لا تكـون دواء لعـلاج البشـر ، ففي بعض الألسنة والأمزجـة لا بد من شيء من الخشـونة والمحـاربة والدفع والطرد . الإسلام دين جذب ومحبة ، كمـا هو دين دفـع ونقمة[2] .

---

(١) بحار الأنوار ، الطبعة الحديثة ، ج ٤٢ ص ١٩٢ و١٩٤ .

(٢) يمكن القـول بأن النقمـة ـ أيضاً ـ مـظهر من مـظاهر المحبـة . فنحن نقـرأ في الدعاء : « **يا من سبقت رحمته غضبه** » أي إنك إذ شئت الـرحمة غضبت ، فلولا رحمتك ومحبتك ما غضبت . كالأب الذي يغضب على ابنه لأنـه يحبه ويتطلع إلى مستقبله . فهو يغضب إذا رآه ارتكب جرماً ، وقـد يعاقبـه ، ولكنه قـد لا يهتم كثيراً إذا رأى أبنـاء الآخرين يـرتكبون الجـرم نفسه . لقـد غضب على ابنه لأنه يحبه ، ولم يغضب على الآخرين لأنه لا يحبهم .

ولكن قد تكون بعض العواطف كاذبة ، أي إنها مجرد أحاسيس لا يتحكم فيها العقل . وقد جاء في القرآن الكريم : =

٣ ـ وهناك من يملك القوة الدافعة دون القـوة الجاذبـة . إنه يصنع الأعداء ولا يصنع الأصدقاء . هؤلاء أناس ناقصون أيضاً . وهذا دليل على أنه يفتقر إلى الخصال الإنسانية الإيجابية . إذ لو كان متمتعاً بجميع الخصال الإنسانية، لوجدنا له ولو عدداً ضئيلاً من المحبين والأصـدقـاء ، فـالمجتمـع لا يخلو من النـاس الـطيبين ، وإن قل عـددهم . ولو كـان جميـع النـاس فـاسـدين ظالمين لكانت هذه العداوات دليل الحق والعدالة . ولكن الناس ليسـوا كلهم رديئين دائماً وليسـوا كلهم طيبين دائماً . لـذلـك لا شـك في أن الشخص الذي يجـد كل النـاس أعداءً لـه ، إنمـا

= ﴿ ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ﴾ (٢٤ / ٢) وذلـك لأن الإسلام يعنى بالأفراد كما يعنى بالمجتمع . ولقد قال الإمام علي (ع) :

« أشد الذنوب ما استهـان به صـاحبه » (نهـج البلاغـة : ح ٣٤٠) إن شيوع الذنوب هو الذي يسقط أهميتها من الأعين ويظهرها تافهة في نظر المرء .

لذلك يقول الإسلام إنه إذا ارتكب ذنب ولم يكن ذلك في خفاء كامـل بحيث أن بعضهم اطلع عليه ، فينبغي أن ينال المذنب عقابه من حد أو تعزير ، فقد جاء في الفقه الإسلامي عموماً أن ترك أي واجب واقتـراف أي محرم ـ إذا لم يكن له حد معين ـ يستـوجب التعزيـر (والتعزيـر عقاب أدنى من الحـد يقرره القاضي) . فعند ارتكاب أحدهم ذنباً وإشاعتـه يقترب المجتمـع خطوة نحـو الإثم ، وهـذا من أخطـر الأمـور على المجتمـع . لـذلـك يجب أن يعـاقب المذنب عقاباً يتناسب وجرمه ، لكي يعود المجتمع إلى طـريقه السـوي ، ولا تسقط أهمية الذنوب من عينه .

وعليه فإن النقمة والعقاب ضرب من المحبة نحو المجتمع .

يكون هو السبب في ذلك ، إذ كيف يمكن أن توجد في إنسان خصال طيبة ، ثم لا نجد له صديقاً ولا محباً واحداً ؟ إن أمثال هؤلاء تخلو شخصياتهم من الخصال الإيجابية ، فهم حتى في خصالهم السيئة لا يستسيغهم أحد . إنهم كالمرارة في الأفواه ، لا يخالطها شيء من الحلاوة أبداً .

يقول الإمام علي (ع) :

« أعجز الناس من عجز عن اكتساب الإخوان ، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم »[١] .

٤ ـ وهناك الذين وهبوا القوتين الجاذبة والدافعة . أناس لهم مسيرة خاصة ، وهم نشطون في اتباع عقيدتهم ومسلكهم ، فيجذبون جماعات نحوهم ، ويدخلون القلوب محبوبين ، كما يدفعون عنهم جماعات أخرى ويطردونهم . إنهم يصنعون الأصدقاء ويصنعون الأعداء . يربون المؤيدين ويربون المعاندين .

ترى كيف هم هؤلاء ؟ إن قوتي الجذب والدفع قد تكونان شديدتين ، وقد تكونان ضعيفتين ، وقد تكونان متباينتين .

إن الذين لهم شخصيات قوية هم الذين قويت فيهم قوتا

(١) نهج البلاغة : الحكمة ١١ .

الجذب والدفع ، وهذا يعتمد على مدى قوة الأسس الموجبة والسالبة في أرواحهم . لا شك في أن للقوة درجات ومراتب بحيث أنها قد تصل أحياناً بالمحبين المجذوبين إلى أن يضحوا بأنفسهم في سبيل من اجتذبهم إليه ، كما قد يصل الأمر بالأعداء المبغضين إلى حيث يضحون بدمائهم على مذبح عدائهم . وقد تشتد تلك القوة بحيث أنها تمتد حتى إلى ما بعد موت صاحبها ، فيبقى أثر جذبه ودفعه قروناً عديدة فاعلاً في النفوس ويشمل ساحة واسعة جداً . إن هذا الجذب والدفع ذا الأبعاد الثلاثة يختص به الأولياء ، مثلما أن الرسالات ذوات الأبعاد الثلاثة يختص بها الأنبياء[1] .

ثم ينبغي علينا أن نتعرف على الذين يجذبونهم وعلى الذين يدفعونهم ، فمثلاً ، قد نراهم أحياناً يجذبون ذوي العقول ويطردون الجهلاء ، وقد يكون الأمر معكوساً . وقد يجذبون العناصر الشريفة النجيبة ويدفعون العناصر الدنيئة الخبيثة ، وقد يكون العكس . ولذلك فإن محبي كل امرىء ومبغضيه يعتبرون دليلاً قاطعاً على ماهية ذلك الشخص .

إن مجرد امتلاك المرء لقوتي الجذب والدفع ، حتى وإن

(١) أنظر مقدمة الجزء الأول من كتابنا « خاتم الأنبياء » ص ١١ و١٢ .

كانتا شديدتين، لا يكفي لاعتباره جديراً بالمدح والثناء ، وإنما تتحقق الجدارة بأصل شخصيته . وشخصية المرء لا تكون دليلاً على طيب طينته . إن جميع قادة الدنيا وزعمائها ، حتى المجرمين المحترفين منهم ، مثل جنكيزخان والحجاج ومعاوية ، كانوا أشخاصاً من ذوي القوى الجاذبة والدافعة . فلولا وجود نقاط إيجابية في نفس شخص مالا يمكنه أن يجعل الآلاف من الجنود طوع أمره وإرادته . ولولا وجود روح قيادية في المرء لما كان بإمكانه أن يجمع جموع الناس من حوله .

كان نادر شاه من هؤلاء . . ما أكثر الرؤوس التي أطاح بها والعيون التي سحلها ! إلا أن شخصيته كانت قوية جداً . فقد أخرج إيران المندحرة في أواخر العهد الصفوي من حالتها المتدهورة باجتذابه الجيوش الجرارة حول قيادته ـ كما يجذب المغناطيس برادة الحديد ـ وتكوين جيش لجب لم يحرر البلاد من نير الدخلاء فحسب ، بل طاردهم حتى أقصى نقاط الهند ، مضيفاً أراضي جديدة إلى الأرض الإيرانية .

وعليه فإن كل شخصية تجتذب إليها مثيلاتها ، وتطرد عنها من لا يماثلها . فالشخصية العادلة المحبة للخير ، تجتذب شخصيات عادلة محبة للخير مثلها ، وتطرد عباد الهوى والمال والمنافقين . والشخصية المجرمة تجذب المجرمين حولها وتبعد الصلحاء عنها .

والاختلاف الآخر ـ كما قلنا ـ هو التباين في درجة قوة الجذب . فمثلما هم يقولون عن قانون جاذبية نيوتن : إنها تتناسب طردياً مع كتلة الجسم وقصر المسافة مع الأرض ، كذلك . . الأمر مختلف في الأشخاص من حيث قوة جذبهم للآخرين .

علي - شخصية ذات قوتين

علي (ع) من الرجال الذين يمتلكون القوتين الجاذبة والدافعة ، وكلتا القوتين أشد ما تكونان فيه . ولعلنا لا نعثر على مدى القرون والعصور من بلغت فيه هاتان القوتان شدتهما في علي (ع) . فأتباعه من أعجب الأتباع : تاريخيون ، مضحون ، صابرون ، يلتهبون حباً به كبيدر مشتعل ، ويشعون ضياء ، يرون التضحية بأرواحهم في سبيله أمنية وفخراً ، ينسون كل شيء في غمرة حبهم له . لقد مضت على موت علي (ع) قرون ، وما زالت جاذبيته تشع وتتلألأ ، فتنجذب إليها العيون حيرى والهة .

في حياته تمحورت حوله عناصر شريفة ، ونجيبة ، تعبد الله ، مضحية ، لا يداخلها الطمع ، أناس صابرون ، رحماء ، عادلون ، يخدمون الناس، لكل واحد منهم تاريخ وعبرة .

وبعد موته ، في خلافة معاوية والأمويين ، عذبت جماعات كثيرة بتهمة الولاء له أشد تعذيب ، ولكنها لم تنكص بسبب ذلك خطوة واحدة على أعقابها عن حبه ، بل صمدت حتى الموت .

سائر شخصيات العالم يموت كل شيء عنهم بموتهم ويختفي مع أجسادهم تحت التراب . غير أن رجال الحقيقة يموتون وتبقى مدارس أفكارهم ويظل الحب الذي أشعلوا فتيلة سراجه على مر الدهور يزداد تلألؤاً وإشراقاً .

إننا نقرأ في التاريخ أنه بعد مضي قرون على وفاة علي (ع) ما يزال هناك أشخاص يستقبلون سهام أعدائه بصدورهم .

نقرأ، فيما نقرأ عن عشاق عليّ والمنجذبين إليه ، عن ميثم التمار ، الذي راح يتحدث عن فضائله وسجاياه الإنسانية ، وهو على أعواد المشنقة . ففي ذلك العهد الذي غرقت فيه البلاد الإسلامية من أقصاها إلى أدناها في بحر من الكبت والتضييق ، حيث أُهدرت الحريات وخنقت الأنفاس في الصدور ، وران صمت كصمت القبور على الملامح والوجوه ، أخذ هو (ميثم) من أعلى المشنقة ينادي بأعلى صوته : تعالوا أحدثكم عن علي . فهجم الناس من جميع الأطراف يريدون أن يسمعوا حديث ميثم . وإذ ترى الحكومة الأموية أن مصالحها في خطر ، تأمر بإلجام فمه ، وبعد أيام تقتله .

إن تواريخ أمثال هؤلاء العشاق يدور كثيراً حول عليّ .

هـذا الجـذب لا يختص بعصـر دون عصـر ، ففي جميـع العصور تجد تجليات من هذا الجـذب الطاغي الـذي فعل فعله العميق .

هنالك شخص باسم (ابن السكّيت) من كبار علماء العرب وأدبائهم ، وما يزال اسمه يتردد كلما تردد اسم سبيويه وأضرابه . عاش هذا الـرجل في عصـر الخليفة المتـوكل العبـاسي . وكان متهماً بالتشيـع لعليّ بعد مـوت عليّ بمائتي سنـة ، ولكن لفضله وسعة علمه اتخذه المتوكل معلماً لولديه . . في أحد الأيام دخل على المتوكل ولداه بحضور ابن السكيت ، فأبدى المتوكل رضاه عنهما لتفوقهما في أداء الامتحان ، وخطر له ـ استناداً إلى ما كان يشاع عن ابن السكيت من تشيع لعليّ ـ أن يسأله :

أتراك تحب ولدي هذين أكثر أم الحسنيـن ولدي عليّ ؟ .

فـاستفـزت هـذه المقـارنـة ابن السكيت فغضب لهـا أشـد الغضب ، وقال في نفسه : أبلغت الجرأة بهذا المغرور أن يقارن ولديه بالحسنين ؟! إنني أنا المقصر لكوني قبلت تعليمهمـا . ثم قال للمتوكل :

« والله ان قنبـر مـولى علي لأحب إلي مـرات من هــذين وأبيهما » .

فغضب المتوكل ، وأمر به فقطعوا لسانه من أصله .

إن التاريخ يعرف الكثيرين ممن لا شهرة لهم ضحّوا بأرواحهم في سبيل حب علي (ع) . . فأين تجد هذه الجاذبية في العالم ؟ لا أحسب أن لها شبيهاً .

وإن لعليّ كذلك من الأعداء من ينقلب حاله عند سماع اسمه . لقد مضى عليّ كفرد ، وبقي كمدرسة تجتذب إليها جماعات وتطرد عنها جماعات .

نعم ، عليّ هو الشخصية ذات القوتين ! .

(١)
قوة جاذبة عليّ

- الجواذب القوية .
- التشيع مدرسة المحبة والعشق
- إكسير المحبة .
- تحطيم الحدود .
- الحب بنّاء أم مخرب ؟ .
- حب الأولياء .
- قوة الحب في المجتمع .
- الوسيلة الفضلى لتهذيب النفس .
- نماذج من التاريخ الإسلامي .
- دور قوة المحبة في تقدم الإسلام .
- حب عليّ في القرآن والسنّة .
- سر حب عليّ .

الجواذب القوية

جاء في مقدمة الجزء الأول من « خاتم الأنبياء » وبشأن « الرسالات » ما يلي :

« إن الرسالات التي ظهرت بين الناس لم تكن على منوال واحد، كما لم يكن شعاع تأثيرها مستاوياً .

بعض الدعوات والأنظمة الفكرية كان ذا بعد واحد، تقدم باتجاه واحد ، وقد عم في بداية ظهوره شرائح واسعة من الناس ويتبعه الملايين منهم . ولكن ما أن انتهى زمانه حتى طوي بساط وجوده وأسلم إلى النسيان .

وبعض آخر كان ذا بعدين ، بعث شعاعه إلى اتجاهين ، وشمل طبقات واسعة من الناس وتقدم في عصور عديدة ، ولم يقتصر على البعد المكاني بل تعداه إلى البعد الزماني أيضاً .

وثمة دعوة تقدمت في اتجاهات مختلفة ، وضمت جماعات

من البشر واسعة تحت نفوذها ، بحيث أننا نرى آثارها في كل قارة من القارات ، وكان لها بعد زماني أيضاً ، أي إنها لم تكن خاصة بزمان وعصر معينين ، بل حكمت بكل اقتدار خلال قرون طويلة ، وتعمقت جذورها في دخائل النفوس واستولت على ضمائر الناس وهيمنت على قلوبهم وأمسكت بزمام مشاعرهم . إن دعوات كهذه هي الدعوات ذوات الأبعاد الثلاثة التي اضطلع بها الأنبياء .

فأين يمكن العثور على مدرسة فكرية وفلسفية استطاعت - مثل الأديان العظيمة - أن تحكم ملايين الناس مدة ثلاثين قرناً أو عشرين قرناً أو أربعة عشر قرناً كحد أدنى ، وأن تستولي على جماع مشاعر أتباعها وما في أعماقهم ؟ » .

كذلك هي القوةالجاذبة ، فبعض ذات بعد واحد ، وبعض ذات بعدين ، وبعض ذات ثلاثة أبعاد .

جاذبة علي من النوع الأخير ، فهي قد جذبت مجاميع واسعة من البشر ، وليست مقصورة على قرن واحد أو قرنين اثنين ، بل استمرت خلال القرون الماضية كلها واستمرت . . إنها حقيقة ما زالت تتلألأ على ملامح القرون والعصور ، وقد غارت حتى أعماق القلوب ، بحيث أن الناس بعد قرون إذا ذكروه وذكروا أخلاقه وسجاياه انهمرت دموع الشوق من عيونهم

وبكوا على مصائبه ، الأمر الذي أثر حتى في نفوس الأعداء واستذرف دموعهم . وهذه أشد الجاذبات قوة .

من هنا يمكن أن ندرك أن صلة الإنسان بالدين ليست من الصلات المادية ، بل هي ارتباط مختلف لا يشبهه أي ارتباط بين الإنسان وبين وأي شيء آخر .

ولو لم يصطبغ عليّ بصبغة الله ولم يكن من رجال الله لكان قد طواه النسيان . إن في تاريخ البشر أبطالاً كثيرين : أبطالاً في القول ، وأبطالاً في العلم والفلسفة ، وأبطالاً في القوة والسلطة ، وأبطالاً في ميادين الحروب . . ولكن الإنسان قد نسيهم جميعاً ، أو أنه لم يعرفهم أصلاً . غير أن علياً لم يمت بموته وإنما ازداد حياة ـ إن صح التعبير ـ وهو نفسه يقول :

« هلك خزان الأموال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقي الدهر ، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة »(١) .

ويقول عن نفسه :

« غداً ترون أيامي ، ويكشف لكم عن سرائري ، وتعرفونني بعد خلو مكاني ، وقيام غيري مقامي »(٢) .

---

(١) نهج البلاغة ، الحكمة ١٣٩ .

(٢) المصدر نفسه ، الحكمة ١٤٩ .

في الحقيقة ، علي أشبه بقوانين الفطرة التي تظل خالية أبداً . إنه منبع فياض لا ينضب ، بل يزداد فيضه على مر الأيام . وهو ـ كما يقول عنه جبران خليل جبران : « **شخصية ولدت قبل زمانها** » .

بعض الناس يصل إلى مركز القيادة في زمانه ، وبعض يستمر في قيادته قليلاً بعد زمانه حتى ينساه الناس. أما عليّ ، وبعض آخرون من الناس ، فهم من الهداة والقادة دائماً وأبدا .

التشيع مدرسة المحبة والعشق

من أهم ميزات الشيعة على سائر المذاهب الأخرى هو أن أساس مذهبهم المحبة . فمنذ عهد النبي الذي وضع فيه حجر الأساس لهذا المذهب ، كان الكلام يدور على المحبة والموالاة ، حتى أننا إذ نسمع **النبي الكريم (ص) يقول** : «**علي وشيعته هم الفائزون**»(١) نجد جمعاً من الناس قد تحلقوا حول علي وقد جذبهم إليه واستغرقهم حباً . ولهذا نرى التشيع مذهب الحب والوله. إن لعنصر المحبة في التشيع أهمية

---

(١) ينقل جلال الدين السيوطي في (الدر المنثور) في شرح الآية السابقة من سورة البينة ، عن ابن عساكر عن جابر بن عبد الله الأنصاري قوله : « كنت في حضرة النبي (ص) إذ دخل علي ، فقال (ص) : «**والذي نفسي بيده ، إن هذا وشيعته هم الفائزون يوم القيامة** » . وقد ورد مضمون هذا الحديث بأسلوب آخر في (كنوز الحقائق) للمناوي في روايتين ، وفي (مجمع الزوائد) للهيثمي ، وفي (الصواعق المحرقة) لابن حجر .

كبيرة ، وتاريخ التشيع يقترن بأسماء مجموعة من العشاق والمضحين المدلهين في الحب .

علي هو ذلك الذي وإن كان يقيم الحدود الإلهية على الناس ويجلدهم ويقطع يد سارقهم بموجب الشرع ، فإنهم لم يلووا عنه كشحاً ولم تنقص محبتهم له أبداً . وهو في هذا يقول :

« لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني . أو لو حبيت الدنيا بجمّاتها على المنافق على أن يحبني ما أحبني ، وذلك أنه قضي فانقضى على لسان النبي الأمي (ص) أنه قال : يا علي لا يبغضك مؤمن ولا يحبك منافق»[1] .

إن عليّاً ميزان توزن به الفطرة والطينة . فمن كان ذا فطرة سليمة وطينة طاهرة لا يبغضه حتى لو ضرب خيشومه . ومن كان ذا فطرة ملوثة لا يحبه حتى لو أحسن إليه كل الإحسان ، لأن عليّاً ليس سوى الحق متجسداً .

ها هو رجل من محبي علي أمير المؤمنين ، ذو فضيلة وإيمان ،ولكن مما يؤسف له أنه قد زلت قدمه ، فكان لا بد من

---

(١) نهج البلاغة ، الحكمة ٤٢ .

إجراء الحد عليه . قطع علي أصابعه اليمنى ، فأمسك بها بيده اليسرى ومضى وقطرات الدم تنزف منه . فأراد ابن الكواء أن يستغل هذا الحدث لمصلحة أصحابه الخوارج وضد علي (ع) ، فتقدم نحوه وقد ارتدى ملامح التعطف والترحم وسأله :

« من قطع يمينك ؟ » .

فقال :

« قطع يميني سيد الوصيين ، وقائد الغر المحجلين وأولى الناس بالمؤمنين ، علي بن أبي طالب ، إمام الهدى . . . السابق إلى جنات النعيم ، مصادم الأبطال ، المنتقم من الجهال ، معطي الزكاة . . . الهادي إلى الرشاد ، والناطق بالسداد ، شجاع مكي ، جحجاح وفي . . . » .

فقال ابن الكواء :

« الويل لك ! يقطع يمينك وتثني عليه ! » .

فقال :

« كيف لا أثني عليه وقد خالط حبه لحمي ودمي ! والله ما قطع يدي إلا بما أنزله الله »[1] .

---

(١) بحار الأنوار ، ج ٤٠ ص ٢٨١ و٢٨٢ الطبعة الحديثة . والتفسير الكبير لفخر الدين الرازي ، ذيل الآية ٩ من سورة الكهف .

هذه النماذج من العشق والولوع التي نـراها في تـاريخ علي وأصحابه تجرنا إلى مسألة المحبة والحب وآثارهما .

يطلق شعراء الفرس على العشق لفظة (**إكسير**) . وكان أصحاب الكيمياء يعتقدون أن في العالم مادة أسموها « **الإكسير** »[1] أو « **الكيمياء** » تستطيع أن تحيل المادة إلى مادة أخرى ، فراحوا يبحثون عن هذه المادة قروناً طويلة .

وقد استعمل الشعراء هذا المصطلح وقالوا : إن الإكسير الحقيقي القادر على التغيير والتحويل هو الحب ، فالحب هو

(١) جاء في (البرهان القاطع) عن الإكسير أنه جوهر مذيب ومازج ومكمل ، وهو بحول النحاس إلى ذهب . كما أنهم يطلقون هذه الكلمة على العقاقير النافعة ، وعلى رأي المرشد الكامل ، من باب المجاز . وهذه الخصائص الثلاثة ـ في الحقيقة ـ موجودة في الحب ، فهو يذيب ويمزج ويكمل . إلا أن وجه الشبه المعروف هو هذه الخصيصة الأخيرة ، أي التغيير التكميلي . ولذلك فالشعراء قد يسمّون الحب بالطبيب والدواء وأفلاطون وجالينوس . . إلخ . .

القادر على قلب الماهيات . العشق هو الإكسير وله خصائص الكيمياء ، أي إنه يبدل المعدن معدناً آخر ، والناس معادن .

« **الناس معادن كمعادن الذهب والفضة** » . الحب هو الذي يجعل القلب قلباً ، فلولا الحب لكان القلب مجرد ماء وطين .

ومن آثار الحب القوة والقدرة . إنه يخلق القوة ويحيل الجبان شجاعاً .

إن الدجاجة ما دامت وحيدة تطبق جناحيها وتدرج في هدوء ، وقد تمد رقبتها لتلتقط دودة ، وتفزع هاربة من أتفه صوت ، ولا تبدي أية مقاومة حتى أمام الطفل الضعيف . إلا أن هذه الدجاجة نفسها إذا صارت أمّاً، وتمكن الحب من حنايا كيانها، تغير حالها ، فتراها وقد أنزلت جناحيها في حالة التهيؤ للدفاع ، وتتخذ هيئة المحارب ، وحتى صوتها يمتلىء قوة وشجاعة. .كانت من قبل تهرب عند استشعار الخطر ، أما الآن فإنها تهجم عند استشعار الخطر ، وتهجم بكل جرأة ، إنه الحب الذي أحال هذه الدجاجة الجبانة إلى حيوان جريء وشجاع !. .

إن الحب يحيل الثقيل الكسول إلى خفيف سريع الحركة ، بل إنه يحيل الأحمق إلى ذكي حادّ الذهن .

هـذا الفتى وهـذه الفتـاة اللذين لم يكـونـا يفكـران ـ وهمـا خليلين ـ إلا فيمـا يخصهما وحـدهما ، أصبحـاـ بعـد أن ارتبـطا برباط الزواج وتكوين العائلة ـ لا يفكران إلا فيمـا يخص الطرف الآخر ، فتتداخـل أشعة مطاليبهما ، وما أن يـرزقا بـالوليـد حتى يتغيران كل التغير . فذاك الفتى المتثاقل الكسول غدا سريعاً كثيـر الحـركـة ، وتلك الفتـاة التي لم تكن تغادر الفـراش إلا بعنـاء ، أمست الآن كـالبرق الخـاطف انطلاقـاً إذا سمعت صوت طفلهـا النائم في المهد . تـرى ما تلك القـدرة التي أزالت ذلك الكسـل والتراخي واستبدلته بكل هذا النشاط والحركة ؟ إنهـا الحب ليس غير ! . .

إنـــه الحب الـذي يحيــل البخيـل كــريمــاً ، والعجــول صبوراً ! . .

إنه الحب الذي يجعـل من الدجـاجة الأنـانية التي لم تكن تفكر إلا في نفسها ، وتلتقط الحب لحيـاتها ، حيـواناً جـواداً إذا وجـدت حبة نـادت فراخهـا . وإنه الحب الـذي يجعل من الأم التي كانت بالأمس القريب أنانية ، مغرورة ، كسـولـة تستعجل الأمور ثائـرة الأعصاب ، ضعيفـة الصبر ، قليلة التحمـل ، امرأة عجيبة في صبرها وتحملها ورضاها بالجوع والعطش والتعب وقلة النوم وانعدام الأناقة وتحمل مشاق الأمومة .

إن من آثـار الحب الـرقـة واللطف وتجنب الخشـونـة والفظاظة ، ومن آثـاره تلطيف العواطف والأحـاسيس ، وكذلـك التوحيد والتوحد والتركيز، والقضـاء على التشتت والتفرق ، ومن بلوغ القوة الحاصلة من الاتحاد والتجمع .

أمـا في الشعر والأدب فـإننـا نصـادف أثـراً واحـداً من آثـار الحب ، وهو فيض الوحي والإلهام ، يقول حـافظ الشيرازي مـا ترجمته :

(البلبل من فيض الورد تعلم الكـلام ، وإلا ما كـان
كـل هـذا الـقـول والغـزل معبـأ فـي مـنـقـاره)[١]

فعلى الـرغم من أن المعنى الظاهـري لكلمة « **فيض** » أمـر خـارج عن وجود البلبل، إلا أنـه ليس في الحقيقـة سـوى قـدرة الحب .

(لا تـظنن مجنـونـاً اصيب بـالجنـون جـزافـاً
فهـو « مجـذوب » لـيلى مـن قـرنـه إلى قـدمـه)[٢]

إن الحب يوقظ القوى النائمة ويطلق الطاقات المقيدة . مثل ذلك انفلاق الذرة وانطلاق طاقاتها .

---

(١) « لسان الغيب » حافظ الشيرازي .

(٢) للعلامة الطباطبائي .

إنـه يلهم ، ويصنع الأبـطال . وما أكثـر الشعراء والفـلاسفة والفنانين الذين خلقهم حب قوي ! .

الحب يوصل النفس إلى كمـالها ويـظهر المـواهب الكامنـة المحيـرة . إنه يلهم القـوى المدركـة ، ويقـوي مشـاعـر الإرادة والعـزيمة . وإذا مـا تسامى في العلى صنـع الكرامـات وخوارق العادات .

إنه يطهر الروح من الأخـلاط والشوائب . فـالحب ، بعبارة أخرى ، يصفّي . إنه يمحو الصفات الرذيلة الناشئة من الأنانية أو من البـرود وانعـدام الحـرارة ، كـالبخـل ، والتقتيـر ، والجبن ، والكسـل ، والتكبر والعجب . إنـه يزيـل الحقد والحسـد ، وإن قيل أن الحرمـان والإخفاق في الحب يمكن أن يخلقـا بدورهمـا الحقد والعقد .

(بـالـحـب يـحـلو كـل مـر
بـالحب يـصبـح الـنحـاس ذهبـاً)[1]

أثر الحب على الروح إعمـار وبناء ، وعلى الجسم تـذويب وتخريب . إن أثره في الجسم عكس تأثيره في الـروح ، فهو في الجسم باعث على خرابه واصفرازه ونحوله وسقمه واختلال هامته

---

(١) المثنوي المعنوي . ترجمة .

وأعصابه، وغير ذلك من صور الهدم والتخريب. . . ولكنه في الروح ليس كذلك ،بحسب موضوع الحب ، وما يريده المحب منه . فإذا تجاوزنا آثار الحب الاجتماعية ، فإنه من حيث آثاره الروحية الفردية تكميلي ، لأنه يولد القوة والرقة والصفاء والاتحاد والهمة ، ويقضي على الضعف والجبن والكراهية والتفرق والبلادة، وينقي الروح من الشوائب التي هي « **الدسّ** » بتعبير القرآن ، ويزيل الغش ويجعل العيار خالصاً .

تحطيم الحدود

إن الحب ـ بصرف النظر عن نوعيته ، حيوانياً جنسياً كان أم حيوانياً أو إنسانياً نسلياً ، وبصرف النظر عن مزايا الحبيب وصفاته من شجاعة وبطولة وفن وعلم ، أو كان ذا أخلاق وآداب وصفات خاصة ـ يخرج المرء من الفردية والأنانية . الأنانية تقييد وتحديد ، والحب يحطم هذه القيود والحدود . ومالم يخرج الانسان من ذاته يكون ضعيفاً ، خائفاً ، بخيلاً ، حسوداً ، شريراً ، عجولاً ، محباً لذاته ، متكبراً ، كليل الروح ، فاتر الهمة والنشاط ، منطفئاً دائم البرود . ولكنه ما إن يضع قدمه خارج « ذاته » ويحطم ما أحاط نفسه به من حدود ، حتى تتلاشى كل تلك الصفات الرذيلة .

إن الأنانية بذلك المفهوم القبيح الذي ينبغي التخلص منه ليس تلك الحالة الوجودية أو العلاقة الوجودية التي تربط الإنسان

بذاته وكينونته . إذ لا معنى لأن يسعى المرء كيلا يحب نفسه . إن « **حب الذات** » الذي جبل عليه الإنسان لم يخلق عبثاً لكي يحاول اجتثاثه من دخيلته . إن صلاح الإنسان وبلوغه الكمال لا يعني أن هناك مجموعة من الأمور الزائدة قد عبثت في ذاته ، فعليه أن يسعى لإزالة تلك الأمور الزائدة المذمومة المضرة ، وبعبارة أخرى : تكامل الإنسان لا يكون بالحذف منه ، بل بالاضافة إليه . إن الواجب الملقى على كاهل الإنسان هو السير نحو الاكتمال ، وهذا يكون بالاستزادة ، لا بالانتقاص.

أما الصراع مع « **حب الذات** » فهو الصراع مع « **محدودية الذات** » وضيقها . فالذات ينبغي أن تزداد سعة ، وهذا الحصار الذي ضربته حول نفسها ـ ذلك الحصار الذي يجعلها لا ترى إلا ما يخصها هي بالذات ويبعدها عن رؤية ما للآخرين ـ يجب أن يتحطم ، لتتسع شخصية الإنسان فتسع الآخرين بل تسع العالم كله . إذن . . . فالنضال ضد « **حب الذات** » يقصد به النضال ضد هذا الحصار ، ضد الحدود والقيود التي تحد ذات الإنسان . **فالمقصود بحب الذات هنا ليس سوى محدودية الفكر وضيقه** . ويأتي الحب ليحول ميول المرء ورغباته من داخل ذاته إلى خارجها ، ويوسع من حدود كيانه ويغير من طبيعة وجوده . وعلى هذا فالحب من العوامل الكبيرة في التربية

الأخلاقية ، إذا ما وجد الهداية الصحيحة واستغل الاستغلال النافع .

الحب . . يبني أم يخرب ؟

إن التعلق بشخص أو بشيء ، إذا بلغ أوج شدته بحيث أنه يكتسح وجود الإنسان ويسخره ويصبح الحاكم المطلق عليه ، يكون هو الحب أو العشق ، وهو القمة من المشاعر والعواطف.

إلا أننا ينبغي ألّا نظن أن هذا الذي أطلقنا عليه اسم (**الحب**) نوع واحد . كلا ، إنه نوعان مختلفان كل الاختلاف . إن الآثار الحسنة التي سبق ذكرها تختص بأحد النوعين . أما آثار النوع الآخر فهدامة مخربة ، على النقيض من الأول.

إن لمشاعر الإنسان مراتب ودرجات . بعضها ينطوي تحت مقولة الشهوات ، وعلى الأخص الشهوة الجنسية ، وهذا مما يشترك فيه الإنسان والحيوان ، إلا إنها في الإنسان تصل إلى درجة الغليان أحياناً لأسباب لا مجال لذكرها الآن ، فيطلق عليها

ـ لـذلك ـ اسم الحب ، ولكنهـا ليست بهذه الصـورة في الحيوان أبداً . ولكنها على كل حال ليست سوى فوران الشهوة وطغيانها ، بادئة بالغريزة الجنسية ومنتهية بها . وإنما يرتبط ارتفاعها وانخفاضها إلى حد كبير بالنشاط الفزيولوجي في اعضاء التنـاسل وبقـوة الحيويـة في الشباب ، وضعفها التدريجي في الشيوخ .

أن الشـاب الذي يـرتجف كلمـا رأى وجهـاً مليحـاً وشعـراً جعداً ، ويتلوى على نفسه كلما لمس يداً ناعمة ظـريفة ، فليعلم أن الأمـر ليس سوى الجـريان المـادي الحيواني . . هـذا النـوع من الحب سريع المجيء سريـع الذهـاب ، لا يعتمد عليـه ، ولا يقبل نصيحة . إنه خطر يقتل الفضيلة ، ولا يمكن درء خطره إلا بالعفاف والتقـوى وعدم الاستسـلام . أي إن قوة هـذا الحب لا تسوق الإنسان نحو أية فضيلة .

ولكنه إذا نفذ إلى كيان المرء ووقف وجهاً لـوجه مـع العفاف والتقــوى ، واستــطاعت النفس أن تـتحـمـل ضغـطه دون أن تستسلم ، فهو عندئذ يمنح الروح قوة وكمالاً .

في الإنسـان نـوع آخـر من المشـاعـر تختلف في حقيقتهـا وماهيتها عن الشهوة ، ولنا أن نـطلق عليه اسم « **العـاطفة** » أو ، كما يسميه القرآن « **المودة** » و « **الرحمة** » .

عندما يكون الإنسان تحت تأثير شهواته ، لا يكون قد خرج

من ذاته ، فهو يرغب في الشخص أو الشيء ويريده لنفسه ويلح في طلبه . فإذا فكر في الحبيب فإنما يفكر كيف ينال وصاله ويبلغ أقصى المتعة منه . بديهي أن هذه الحالة لايمكن أن تكمل الإنسان وتربي روحه وتهذبها.

إلا أن الإنسان قد يقع تحت تأثير عواطفه الإنسانية السامية ، فيصبح المحبوب والمعشوق في نظره شيئاً عظيماً محترماً يتمنى له السعادة ، ويفتدي رغباته بنفسه . هذه العواطف تخلق في المرء مشاعر الصفاء والحميمية واللطف والرقة ونكران الذات ، بخلاف النوع الأول الذي يقوم على الغلظة والحيوانية والإجرام . إنّ من أمثلة النوع الأخير محبة الأم لاطفال .

إن هذا النوع من العواطف هو الذي إذا بلغ أوج قوته وكماله أوجد تلك الآثار الطيبة التي ذكرناها .وهذا النوع هو الذي يمنح النفس جلالها وعظمتها وشخصيتها، بخلاف النوع الأول الذي يجعل صاحبه وضيعاً حقيراً . إن هذا النوع هو الحب المكين الذي يزداد بالوصال شدة وحدة ، بخلاف النوع الأول الذي يكون سريع الانهيار ، وفي الوصال نهايته .

يصف القرآن الكريم العلاقة بين الزوجين بالمودة والرحمة : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا**

إِلَيْها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً ورَحْمَةً ﴾[1]. وفي هذا شيء كثير من السمو ، فهو يشير إلى الجانب الإنساني المترفع عن الحيوانية في الحياة الزوجية، وإلى أن عامل الشهوة ليس الرابط الطبيعي الوحيد فيها ، بل إن الرابط الأصيل فيها هو الصفاء والحميمية واتحاد الروحين وبعبارة أخرى : إن ما يجمع الزوجين ويوحد بينهما هو حرارة المحبة والمودة والصفاء ، لا تلك الشهوة الموجودة في الحيوانات أيضاً.

إن الفلاسفة الماديين لم يستطيعوا إنكار هذه الحالة الروحية التي لها جوانبها غير المادية والتي لا يرونها تنسجم مع مادية الإنسان.

يقول برتراند راسل في كتابه (الزواج والأخلاق) :

« إن العمل الذي لا يستهدف إلا الربح لن تكون له نتائج مفيدة فلبلوغ هذه النتائج يلزم إختيار عمل ينطوي على الإيمان بفرد أو بشيء . كذلك الحب ، فهو إذا استهدف وصال الحبيب فحسب كان على مستوى العمل طلباً للربح نفسه ، ولم يزد شيئاً في كمال شخصيتنا . وللوصول إلى هذه الغاية ينبغي على المحب أن يرى « **الأنا** » في الحبيب مثل « **الأنا** » في ذاته

(١) سورة الروم ، الآية ٢١ .

أهمية ، وأن يعتبر مشاعر الحبيب ورغباته مشاعره هو ورغباته . »

ثمة نقطة أخرى جديرة بالتذكر ، وهي ما قلناه عن أنه حتى الحب الشهواني قد يكون ذا فائدة ، ولا يكون ذلك إلا إذا صاحبته التقوى والعفاف ، فالنأي والحرمان من جهة ، والعفاف والطهارة من جهة أخرى ، تسبب العذاب والضغط والألم للروح ، فتكون لها آثار نافعة .

وفي هذا يقول المتصوفون : إن الحب المجازي يتحول إلى حب حقيقي ، إلى حب الله ذاته . وفي هذا ـ أيضاً ـ يروى أن « **من عشق ، وكتم ، وعف ، ومات ، مات شهيداً** » .

ولكن ينبغي أن لايغرب عن بالنا أن هذا النوع من الحب ـ على الرغم مما قد يكون فيه من فائدة ـ ليس مما يمكن تحبيذه . إنه لواد ذي خطر ، ويشبه في هذا المصيبة التي تحيق بالمرء ، فإن واجهها بالصبر والرضى ، كانت مكملة لشخصه ومطهرة لنفسه ، فتنضج الغِر ، وتصفي الكدر ، ومع ذلك فالمصيبة لا يمكن تحبيذها ، إذ ليس من المعقول أن يستنزل المرء على نفسه المصائب ، ولا على غيره بهدف الوصول عن طريقها إلى تلك الفوائد.

إن لبرتراند راسل في هذا أيضاً قول جميل :

« العذاب يملأ الناس بالطاقة كالثقل الثمين . إن من يجد نفسه سعيداً كل السعادة لن يبذل أي جهد للاستزادة منها . إلا أنني لا أرى في هذا عذراً مقبولاً يدفعنا إلى تعذيب الآخرين لحملهم على التقدم نحو الخير ، لأن ذلك في أغلب الأحيان يؤدي إلى عكس المطلوب ويحطم الإنسان . وعليه فالأفضل أن نستسلم لما يصادفنا في منعطفات مسيرة الحياة»[1] .

إن الإسلام ـ كما نعلم ـ يذكر كثيراً آثار البلايا وفوائدها ، وأنها من ألطاف الله تعالى ، إلا أنه لا يجيز لأحد اتخاذ ذلك ذريعة لخلق المصائب للنفس أو للآخرين.

ثم إن هناك اختلافاً بين الحب والمصيبة، وهو أن الحب من أشد العوامل الأخرى « **مجانبة للعقل** » ، فحيثما وضع الحب قدمه أنزل العقل عن عرش سلطانه . ولهذا نجد الأدب الصوفي يشير إلى العشق والعقل كرقيبين . ومن هنا ـ أيضاً ـ جاء التضاد بين الفلاسفة والمتصوفة ، فأولئك يعتمدون العقل هادياً ، وهؤلاء يتخذون الحب مرشداً.

والمتصوفة في أدبهم يجعلون العقل محكوماً عليه

---

(١) برتر اند راسل (زناشوئي واخلاق) ص ١٣٤ .

ومغلوباً في ميدان التنافس مع العقل . هذا سعدي يقول ما ترجمته :

(ينصحني الذين يريدون لي الخير :
صنع اللّبن فوق البحر لا جدوى فيه)

(ان قوة الشوق تغلب الصبر
ودعوى العقل على العشق باطلة)

ويقول آخر ما ترجمته :

(قارنت حكمة العقل في طريق الحب
فكان كقطر الندى يرسم على مياه البحر)

إن طاقة تكون بهذه القوة وتأخذ زمام الاختيار من يد الإنسان ، وكما يقول مولَوي : « تجعل المرء كريشة في مهب الرياح » أو كما يقول برتراند راسل : « هي أقرب إلى الفوضى » كيف يمكن الدعوة لها والايصاء بها؟ .

ومهما يكن ، فكون الأمر مفيداً شيء ، وتجويزه والإيصاء به شيء آخر .

وعليه ، فليس هناك مايدعو لقبول اعتراض بعض المتشرعين على بعض فلاسفة الإسلام[1] لتطرقهم في بحث

(١) مثل ابن سينا في (رسالة العشق) وصدر المتألهين في السفر الثالث من أسفاره .

الإلهيـات إلى آثار الحب وفـوائده ، وذلـك لأنهم اعتقدوا أن أولئـك الفلاسفـة يعتبرون الإيصـاء بالحب جـائـز ، مـع أنهـم قصـدوا إلى ذكر فـوائـده في جـو من التقـوى والتعففِ ، ولم يقولوا بجوازه أو الايصاء بـه ، كما هي الحـال مع المصـائب والبلايا تماماً.

قلنا: إن الحب لا يقتصر على الحب الحيواني الجنسي ، ولا الحب الحيواني النسلي ، بل إن هناك نوعاً آخر ينمو في جو أعلى وارفع ، خارج حدود الماديات ، ويستمد وجوده مما وراء غريزة بقاء النوع . وهو - في الحقيقة - الحد الفاصل بين عالم الإنسان وعالم الحيوان . إنه الحب المعنوي الإنساني . إنه تعشق فضائل الإنسان وما فيه من خير ، والولوع بالسجايا الإنسانية وجمال الحقيقة.

وهذا الحب هو الذي يرد كثيراً في القرآن تحت ألفاظ « **المحبة** » وأحياناً « **الود** » أو « **المودة** » . ويمكن تقسيم الآيات الخاصة بهذا في القرآن إلى عدة أقسام ، فمنها :

١ - الآيات التي وردت في وصف المؤمنين وتتحدث عن حبهم العميق لله أو للمؤمنين :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ ﴾ (٢ : ١٦٥) .

﴿ وَالَّذينَ تَبَوَّأوُا الدّارَ والأيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ ﴾ (٥٩ : ٩) .

٢ ـ الآيات التي تتحدث عن حب الله للمؤمنين :

﴿ إنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (٢٢٢ : ١) .

﴿ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٥ : ١٣ و ٣ : ١٤٨) .

﴿ إنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٩ : ٤ ـ ٧).

﴿ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ (٩ : ١٠٨) .

﴿ إنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٤٩ : ٩ و ٦٠ : ٨) .

٣ ـ الآيات التي تتضمن الحب المتبادل بين الطرفين ، حب الله للمؤمنين وحب المؤمنين لله ، وحب المؤمنين بعضهم بعضاً :

﴿ قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ (٣ : ٣١) .

﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ (٥ : ٥٤) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ (١٩ : ٩٦) .

﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (٣٠ : ٢١) .

وهذا هو الحب الذي أراده إبراهيم لذريته[١]، وما طلبه نبينا (ص) لأهله بأمر من الله[٢] .

ويستفاد من الروايات أن روح الدين وجوهره ليس سوى الحب والمحبة . يقول بريد العجلي :

كنت في حضرة الإمام الباقر (ع) فدخل عليه مسافر من خراسان كان قد قطع تلك المسافة الطويلة للتشرف برؤية الإمام ، فعندما نزع نعليه رأيت الشقوق في قدميه . قال : والله لم يأت بي آت من حيث جئت سوى حبكم أهل البيت . فقال الإمام (ع) : والله لو أحبنا حجر لحشره الله معنا . « **وهل الدين إلا الحب** »[٣] .

قال رجل للإمام الصادق (ع) : إننا نسمي أبناءنا

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية ٣٧ .

(٢) سورة الشورى، الآية ٢٣ .

(٣)(سفينة البحار) ج ١ ص ٢٠١ مادة « حب » .

بأسمائكم وأسماء آبائكم . أينفعنا هذا في شيء ؟ فقال الإمام : « **نعم والله . وهل الدين إلا بالحب . ثم تلا الآية الشريفة : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾**[1] .

إنه الحب الذي يحمل على الطاعة ، فالعاشق لن يتأتى له أن يتقاعس عن تحقيق إرادة المعشوق . إننا نرى هذا بأعيننا ، فهذا الشاب العاشق يضحي بكل شيء ويتنازل عن كل شيء في سبيل معشوقته .

إن اطاعة الله وعبادته تكون بمقدار حب الإنسان لله تعالى . قال الإمام الصادق (ع) :

تعصي الأله وأنت تظهر حبه
هذا لعمري في الفعال بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته
إن المحب لمن يحب مطيع

---

(١) المصدر نفسه ص ٦٦٢ مادة « سما » .

قوة الحب في المجتمع

الحب في المجتمع قوة عظيمة ومؤثرة . خير المجتمعات تلك التي تدار بقوة الحب: حب الزعيم والحاكم للناس ، وحب الناس وتعلقهم بزعيمهم وقائدهم .

إن حب الحاكم عامل عظيم في استقرار الحكومة ودوامها . فبغير عامل الحب لا يستطيع قائد أن يقود ، وإذا استطاع فبصعوبة بالغة ، بحيث يربي أفراد الناس على الانضباط والتزام القانون ، حتى وإن أقام العدل والمساواة بينهم ، وفي هذه الحالة سيلتزم الناس القانون ، ومن هذا المنطلق سوف يتوقعون أن يروا في قائدهم أمارات الحب ، وهذا الحب هو الذي يحمل الناس على الطاعة والتسليم .

وها هو القرآن يخاطب رسول الله (ص) بقوله :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ

الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾[1] .

فالقرآن يرى سبب حب الناس للنبي (ص) هو الحب الذي يبديه رسول الله (ص) نحوهم . ومع ذلك فإنه يوصيه بأن يعفو عنهم ويستغفر لهم ويستشيرهم في أمورهم . كل ذلك من آثار المحبة والمودة ، كما أن الرفق والحلم والصبر جميعاً من شؤون الحب أيضاً .

ويقول القرآن أيضاً :

﴿ وَلا تَسْتَوِي الحَسَنَةُ ولا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإذا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلَي حَمِيمٌ . ﴾[2] .

الإمام علي أمير المؤمنين (ع) يوصي مالكاً الأشتر عند توليته مصر بقوله :

« واشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم . . . فاعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه »[3] .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٥٩ .

(٢) سورة فصلت ، الآية ٣٤ .

(٣) نهج البلاغة .

قلب الحاكم يجب أن يكون منبع العطف على الأمة والمحبة لها ، فالقوة والعنف لا يكفيان ، فبهذين يمكن سوق الأمة سوق الأغنام ، ولكن لا يمكن بهما إيقاظ ما في داخلهم من طاقات كامنة للعمل . لا القوة والعنف وحدهما ، بل إن العدالة الجافة لا تكفي معهما أيضاً . . إن على الحاكم أن يحب الناس حباً أبوياً بجماع قلبه ، وأن يظهر لهم مودته وعطفه ، ولا بد أن يكون ذا شخصية جذابة تصنع المحبين ، لكي يستطيع أن يضع إرادتهم وهمتهم وطاقاتهم الإنسانية العظيمة الخلاقة في خدمة هدفه المقدس .

كان البحث السابق في الحب وآثاره مقدمة للتوصل إلى النتائج التي سوف نتناولها بالبحث فيما يلي :

إن أهم بحث من بحوثنا ـ وهو بحثنا الأصل في الواقع ـ هو معرفة ما إذا كان حب الأولياء والصالحين يعتبر هدفاً بحد ذاته والوسيلة الفضلى لتهذيب النفس وإصلاح الأخلاق وكسب السجايا والفضائل الإنسانية .

في الحب الحيواني ، يتوجه كل اهتمام العاشق وعنايته إلى صورة الحبيبة وتناسق اعضائها وجمال ملامحها وطراوة بشرتها ، وفي هذا الحب تكون الغريزة هي التي تجذب الإنسان وتلهب فيه الرغبة ، ولكن بعد أن يشبع شهوته يخبو ذلك اللهيب وتبرد حرارته وتنطفىء شعلته .

أما الحب الإنساني ،فهو الحياة وهو الذي يصنع الأتباع

الطائعين ، كما قلنا . . إن الحب هو الذي يشاكل بين العاشق والمعشوق ، فيسعى المحب لأن يكون مظهراً من مظاهر الحبيب ونسخة من سلوكه ، كما يقول الخواجة نصير الدين الطوسي في شرح (إشارات) ابن سينا :

«والنفساني هو الذي يكون مبدؤه مشاكلة نفس العاشق لنفس المعشوق في الجوهر ، ويكون أكثر إعجاباً بشمائل المعشوق لأنها آثار صادرة عن نفسه . . . وهو يجعل النفس لينة شيقة ذات وجد ورقة ، منقطعة عن الشواغل الدنيوية »[١] .

فالحب يسوق الإنسان نحو المشابهة والمشاكلة ، وما فيه من قدرة تجعل المحب يكون بشكل المحبوب . الحب كأسلاك الكهرباء التي تصل بين المحبوب والمحب . فتنقل إليه صفات المحبوب . ولهذا كان لاختيار المحبوب أهمية بالغة .

ولذلك أولى الإسلام اهتماماً كبيراً بموضوع اختيار الأحبة والأصدقاء ، وقد وردت في ذلك آيات وروايات كثيرة ، لأن الصداقة تصطنع الصبغة وتصطنع الجمال ، وتصطنع الغفلة ، فحيثما ألقت بأشعتها قلبت العيوب فنوناً ،

---

(١) (شرح الإشارات) ج ٣ ص ٣٨٣ الطبعة الجديدة .

وأحالت الأشواك ورداً وريحاناً[1] .

وهناك آيات وأحاديث تحذر بشدة من مصاحبة رفاق

---

(۱) إن في الحب عيوباً ، منها أن العاشق ـ وقد استغرقه حسن المعشوق ـ يغفل عن رؤية ما فيه من عيوب ، فحب الشيء يعمي ويصم ، و« من عشق شيئاً **أعشى بصره وأمرض قلبه** » كما يقول الإمام علي (ع) . وهذا لا يتنافى مع ما قلناه من أن الحب يجعل الذكاء حاداً والإدراك أعمق ، ويحيل القوة إلى الفعلية . كما أن تأثير الحب السيء ليس أن يحيل المرء إلى أبله ، بل تنتابه الغفلة ، والبلاهة والغفلة مختلفتان . فكثيراً ما يستطيع القليل الذكاء الابتعاد عن الغفلة بحفظ تعادل مشاعره .

الحب يحد الذكاء ، ولكنه يوجه النظرة والتوجه إلى اتجاه واحد ، لذلك فقد قيل : إن أثر العشق التوحد ، ومن هذا التوحد والتمركز يحصل العيب فيغفل الإنسان عن الالتفات إلى الأمور الأخرى .

والأكثر من ذلك هو أن الحب لا يغطي العيوب فحسب ، بل إنه يقلب القبيح حسناً ، إذ أن من خصال الحب أنه حيثما شع نوره ظهر الجمال ، فالذرة من الحسن تبدو كالشمس ، بل يبدو الأسود أبيض والظلام ضياء .

والظاهر أن السبب هو أن الحب ليس كالعلم الذي يعتمد على المعرفة كلياً . فالحب جانبه الباطني النفساني أقوى وأشد من جانبه الخارجي العيني ، أي إن مقدار الحب لا يتبع مقدار الحسن بل هو أكثر ما يتبع مقدار الاستعداد لتقبله . . إن في العاشق ـ في الواقع ـ جوهراً ، مادة ، أو إنه النار تحت الرماد ، تبحث عن العذر والموضوع . وعندما يصادف يوماً هذا الموضوع ويحصل التوافق ـ وهذا ما لم يعرف سره حتى الآن ، ولذلك يقال : إن الحب لا يحتاج إلى سبب ـ تظهر تلك القوة الباطنية وتصطنع الجمال بقدر ما تستطيع ، لا بالقدر الموجود فعلاً في المعشوق . وهذا هو معنى القول : إن الود يقلب العيوب فنوناً والأشواك ورداً وريحاناً .

السوء وتبادل الود معهم ، وفي أخرى حث على مصادقة الأخيار الأطهار .

قال ابن عباس : كنا في حضرة الرسول (ص) فسألوه : من خير جليس ؟ فقال (ص) :

« من ذكّركم بالله رؤيته ، وزادكم في عملكم منطقه ، وذكركم بالآخرة عمله . »[1] .

ما أحوج الإنسان إلى إكسير حب الصالحين والأطهار ، إلى أن يحبهم ويصطبغ بصبغتهم ! .

هنالك عدة طرق لتهذيب النفس وإصلاح الأخلاق ، كما أن هناك مدارس مختلفة لذلك ، منها مدرسة سقراط التي ترى أن على المرء أن يعتمد العقل في إصلاح نفسه ، فيلزمه أولاً أن يدرك فوائد تزكية النفس ومضار اختلال الأخلاق ، ثم يقوم بواسطة آلة العقل بالبحث عن الصفات المذمومة واحدة واحدة فيقتلعها كما يقتلع المرء الشعيرات من داخل أنفه واحدة واحدة ، أو كالزارع الذي يقتلع الحشائش الضارة من أرضه ، أو ينظف قمحه مما فيه من أحجار وصخيرات بيده ، وبذلك يكون قد نظف بيدر حياته من الشوائب .

---

(١) (بحار الأنوار) ج ١٥ كتاب العشرة ، ص ٥١ الطبعة القديمة .

وعلى وفق هـذا الأسلوب لا بد من التـزام الصبر والجلد والـدقـة في الحسـاب والتفكيـر لكي يمكن بـالتـدريـج إزالـة المفاسد الأخلاقية وتنقيـة دهب الوجـود من أوشابـه ، ولربمـا أمكن القول بأن ذلك غير متيسر للعقل أن يضطلع به .

الفـلاسفة يـريدون إصـلاح الأخـلاق من العقـل والفكـر والتفكيـر . فهم يقولـون ، مثلاً : إن العفـة والقناعـة في نظر الناس هما اللذان يؤديـان إلى عزة الإنسـان وشخصيته ، وإن الطمع والجشع هما باعثا الذلة والضعة .

أو يقـولون : إن العلم سبب القـوة والقـدرة ، وإنـه كـذا وكـذا ، وإنه « **خـاتم ملك سليمـان** » وإنـه سـراج في طـريق الإنسان ينير له الطريق ويكشف المهاوي .

أو يقـولون : الحسـد وإرادة السـوء للنـاس دليـل مـرض نفسي له عواقب اجتماعية سيئة ، وما إلى ذلك من أقوال .

لا شـك في أن هـذا طـريق صحيـح ، وأن هــذه وسيلة جيدة . ولكن الكلام يدور على قيمة هذه الوسيلة بـالقياس الى وسيلة أخرى ، كالقول بأن السيارة وسيلة جيدة ، ولكن ينبغي معرفة درجة جودتها بالنسبة للطائرة مثلاً .

نحن ـ قبـل كـل شيء ـ لا نجـادل في قيمـة العقــل من حيث عمله الإرشادي ، أي إلى أي مدى تكون الاستدلالات

العقلية قادرة على إظهار الواقع في القضايا الأخلاقية ومدى صحتها وعدم صحتها . ولكن الذي نريد أن نقوله هو أن المدارس الفلسفية الأخلاقية والتربوية لا تعد ولا تحصى ، وما زالت هذه القضايا الاستدلالية تدور ضمن حدود البحث واختلافات وجهات النظر ، وفي هذا يقول أهل التصوف :

(قوائم الاستدلال خشبية
والقوائم الخشبية جد غير مكينة)

إننا لا نبحث هذا في الوقت الحاضر ، وإنما نبحث في المدى الذي يبلغه .

إن رجال العرفان والسير والسلوك قالوا باستبدال طريق العقل والاستدلال بطريق المحبة والولاء . يقولون : ابحث عن الإنسان الكامل ، ثم ضع حبل حبه والولاء له في عنق قلبك ، فذلك أقل خطراً من الاستدلال واسرع في بلوغ المرام .

من حيث المقارنة بين هاتين الوسيلتين فإنهما تكونان كالمكائن اليدوية القديمة والمكائن الآلية الحديثة . إن تأثير قوة الحب والولاء في إزالة الرذائل الأخلاقية من القلب أشبه بتأثير المواد الكيماوية على المعادن . فصانع (الكلايش) مثلاً يزيل أطراف الحروف الطباعية بالتيزاب ، لا بظفره أو

بالسكين . ولكن تأثير قوة العقل في إصلاح المفاسد الأخلاقية أشبه بمن يريد أن يفصل ذرات الحديد عن التراب باليد ، فكم سيكون عناؤه وتعبه في هذا السبيل ؟! إذ لو كان بيده مغناطيس قوي لاستطاع بإدارة المغناطيس دورة واحدة في التراب أن يجتذب كل ذرات الحديد مرة واحدة .

إن قوة المحبة والولاء هي المغناطيس الذي يجمع الصفات الرذيلة ويلقي بها بعيداً .

يرى أهل العرفان أن حب الأطهار والكاملين والولاء لهم يعمل كالجهاز الآلي الذي يجمع الرذائل ويطرحها جانباً . فلو أصبح المرء مجذوباً بحق لكان في أحسن حال من الصفاء والنبوغ .

نعم ، إن الذين سلكوا هذا الطريق طلبوا إصلاح الأخلاق من قوة الحب واعتمدوا في ذلك على قدرة العشق والولاء . ولقد دلت التجارب على أن مطالعة مئات الكتب الأخلاقية لم تؤثر بقدر أثر مصاحبة الصالحين وحبهم ومتابعتهم في الروح .

يرمز (مولوي) بالناي إلى رسالة الحب ، فيقول :

(من رأى كالناي سماً وترياقاً معاً ؟
من رأى كالناي جليساً وعاشقاً معاً ؟)

(إن من قُدّ بالحب قميصه
طهر من الجشع والعيوب كلها)
(فمرحا لك أيهاالحب ذو التعامل الحسن
ويا طبيب عللنا كلها)

نرى أحياناً بعض العظماء الذين يقلدهم أتباعهم حتى في طراز مشيتهم وملابسهم وتعاملهم وطريقة حديثهم . إن هذا التقليد ليس اختياراً ، بل هو طبيعي يحدث بغير وعي وبتأثير قوة الحب والولاء التي تؤثر في جميع أركان وجود المحب ، فتعمل على أن تجعله في جميع الأحوال أشبه بالحبيب .

ولهذا فعلى كل امرىء يريد إصلاح نفسه أن يبحث عن أحد رجال الحقيقة فيمحضه حبه لكي يستطيع أن يصلح نفسه حقاً .

(إذا كان في رأسك هوى الوصال ـ يا حافظ ـ
فعليك أن تصبح تراب أعتاب أهل الخبرة)

إن الإنسان الذي كان من قبل يتهاون كلما عنّ له أن يؤدي عبادة أو أن يعمل عملاً صالحاً . أصبح بعد أن وافاه الحب والولاء وقد زايله ذلك الإهمال والتراخي ، فرسخ عزمه وقويت همته :

(حب الطيبين أخذ من الجميع قلوبهم ودينهم بغير وجل
والرخ في الشطرنج لم يأخذ ما أخذه وجه الجميل)
(لا تظنن مجنوناً أصيب بالجنون جزافاً
فهو « مجذوب » ليلى من قرنه إلى قدمه)
(إنني لم أبلغ الشمس رفعة بنفسي
فقد كنت ذرة صعد بي حبك إلى العلى)
(إنهما قوسا حاجبيك وكفك السماوية
التي جالت في هذا المجلس وذهبت بقلب المجنون)[١]

يشير التأريخ إلى رجال عظام أثار حب الكاملين والولاء لهم - في نظر المحبين في الأقل - ثورة في أرواحهم ونفوسهم . والشاعر (رومي) واحد من اولئك ، إذ أنه لم يكن منذ البداية بهذه الحرقة والثورة . كان عالماً هادئاً منصرفاً إلى التدريس في زاوية من مدينته . ولكنه منذ اليوم الذي التقى فيه (شمس) التبريزي ، وهب له قلبه وروحه وولاءه ، فأحاله هذا إلى شخص مختلف وأشعل في قلبه

---

(١) هذه الأبيات للعلامة الطباطبائي باللغة الفارسية وفيها الكثير من المحسنات البديعية ، ومنها التورية في « رخ » الشطرنج و« رخ » بمعنى الوجه أو الخد - المترجم .

النيران كالشرر إذ يصيب مخزناً للبارود . إنه في الظاهر كان من الأشاعرة، إلا أن ديوانه (مثنوي) يعد من أعظم دواوين الدنيا . لقد نظم (ديوان شمس) في ذكرى حبيبه ومراده ، ويذكره في (مثنوي) كثيراً أيضاً ، حيث نراه في هذا الديوان يرمي إلى أن يقول شيئاً ، ولكنه ما إن يتذكر (شمساً) حتى يضطرم في داخله طوفان عارم وتتلاطم فيه أمواج صاخبة ، فينقلب هو موضوع الكلام .

(ماذا أقول وليس فيّ عرق مدرك
في وصف ذاك الحبيب الذي لا نظير له)
(شرح هذا الهجران وهذا العذاب
أتركه في هذاالوقت إلى وقت آخر)
(لا تبحث عن الفتنة والاضطراب وإراقة الدماء
فلا تتحدث أكثر من هذا عن شمس التبريزي)

وهذا مصداق قول حافظ :

(البلبل من فيض الورد تعلم الكلام وإلا ماكان
كل هذا القول والغزل معبأ في منقاره)

في التأريخ الإسلامي نشاهد نماذج بارزة لم يسبق لها مثيل من حب المسلمين وتعلقهم بشخص رسول الله (ص) . وهذا في الحقيقة واحد من الاختلافات بين مدرسة الأنبياء ومدرسة الفلاسفة ، ففي هذه يكون الطلاب متعلمين فحسب ، بغير أن يكون للأساتذة الفلاسفة أي تأثير في نفوس طلابهم أكثر من تأثير أي معلم في تلميذه .

أما الأنبياء فنفوذهم من قبيل نفوذ الحبيب ، ذلك الحبيب الذي يكون قد نفذ إلى أعماق قلب محبه واستولى على جماع حياته ووجوده .

ومن بين الذين تولهوا في حب النبي (ص) أبو ذر الغفاري .

أمر رسول الله (ص) بالتحرك يوماً إلى تبوك (على بعد

حوالي مائة فرسخ شمال المدينة المنورة عند الحدود السورية) . فاعتذر بعضهم بمختلف الأعذار ، وقف المنافقون حجر عثرة في طريق ذلك . . ولكن تهيأ في النهاية جيش جرار.

كانت تعوزهم التجهيزات العسكرية ، ولم يكن معهم من الطعام إلا النزر اليسير بحيث كان بعضهم يسد جوعه بتمرات معدودات . إلا أنهم جميعاً كانوا أشد ما يكونون حيوية ونشاطاً ، فقد كان الحب ينفث فيهم القوة ، وجاذبة رسول الله (ص) تزيدهم قدرة .

كان أبو ذر ـ أيضاً ـ بين هذا الجيش المتجه إلى تبوك . وفي خلال الطريق تأخر ثلاثة أشخاص واحداً بعد واحد ، فكانوا يخبرون رسول الله (ص) بذلك ، فكان في كل مرة يقول :

« إذا كان فيه خير فسيرجعه الله ، وإذا لم يكن فيه خير فخيراً فعل . » .

وكان أبو ذر يركب جملاً ضعيفاً نحفاً لا يقوى على السير ، فتأخر به عن الركب ، فقيل لرسول الله : إن أباذر قد تخلف أيضاً . فكرر رسول الله (ص) جملته تلك :

« إذا كان فيه خيراً فسيرجعه الله ، وإذا لم يكن فيه خير فخيراً فعل . » .

ويــواصــل الجيش مسيــره وأبــو ذر متخلف عن لحــاق الـركب ، لخور مـطيتـه ، ولم ينفـع فيهـا ضـرب ولا حث ، فهجـر البعير ، وحمـل متاعـه على ظهره ، وراح يمشي فـوق الصخور المحرقـة في ذلك الحـر اللافـح ، وقد أوشـك على الهلاك من شدة العـطش . ووصل إلى صخـرة في ظل جبـل حيث كان ماء المطر قد تجمع في بركة صغيرة ، فذاقه فإذا به عذب بارد ، ولكنه امتنع عن الشـرب قائـلاً : **والله لن أشرب حتى يشرب منه حبيبي رسـول الله**. وملأ قـربته ووضعهـا على كتفه وأسرع خلف جيش المسلمين .

رأى الجيش شبحاً بعيداً مقبلاً عليهم ، فقالوا : يا رسول الله : نرى شبحاً مقبلاً علينا ، فأخبرهم الرسول (ص) أنه لا بد أن يكون أبا ذر . وإذا اقترب عرفوه . نعم . . إنه أبو ذر ، ولكنه يكاد يقع على الأرض تعباً وعـطشاً . ومـا أن وصل إلى حيث رسول الله (ص) حتى وقع على الأرض . فـأمر رسـول الله (ص) أن يسـرعـوا إليـه بـالمـاء . فقـال أبـو ذر بصـوت ضعيف : إن معي ماء . فتبسم (ص) وسألـه : أمعك المـاء وأنت تشرف على الهلاك عطشاً ؟ .

فقال : يا رسول الله . عندما تذوقت المـاء ، أحزنني أن أشرب منه قبل أن يشرب منه حبيبي رسول الله[1] .

---

(١) (بحار الأنوار) ج ٢١ ص ٢١٥ و٢١٦ الطبعة الجديدة .

ترى في أية مدرسة من مدارس العالم يمكن أن نعثر على مثل هذا الوله والتشوق ونكران الذات ؟ .

نموذج آخر :

بلال الحبشي نموذج آخر من المدلهين بحب رسول الله (ص) . كان طواغيت قريش في مكة يعذبونه أشد عذاب . . لا يطيقه إنسان . يرمونه على الرمال المحرقة في الصحراء الملتهبة ، ويطلبون منه أن يذكر آلهتهم بخير وأن يذكر محمداً بسوء . كان أبو بكر ينصحه بكتمان إسلامه ، ولكنه لم يكن يطيق الكتمان. وقد أبدع الشاعر (رومي) في الإشارة إلى ذلك في قصيدة وردت في الجزء السادس من ديوانه (مثنوي) .

نموذج آخر :

يذكر المؤرخون المسلمون حادثة شائعة معروفة من حوادث صدر الإسلام في غزوة الرجيع ،ويوم الرجيع .

في السنة الثالثة من الهجرة جاء جمع من قبيلتي (عضل) و (القارة) ـ وهما تشتركان حسب الظاهر مع قريش في الأصول وتسكنان حوالي مكة ـ إلى رسول الله (ص) وقالوا : « لقد أسلم جمع منا ، فنطلب إرسال عدد من المسلمين يشرحون لنا معنى الدين ويعلمونا القرآن

ويفقهوننا في أصول الدين وتعاليم الإسلام . » .

فأرسل معهم رسول الله (ص) ستة من أصحابه لذلك، برئاسة رجل اسمه (**مرثد بن أبي مرثد**) وقيل إنه (**عاصم بن ثابت**) .

وصل مبعوثو رسول الله مع أولئك الأعراب الـذين كانوا قـد قدمـوا إلى المدينـة لهـذا الغـرض ، ووصلوا إلى مكـان تقـطنه قبيلة هـذيل ، فنـزلوا ليلتهم هناك ، وفيمـا كـان رسـل رسـول الله (ص) يغطون في نـومهم ، وإذا بجمع من أفـراد قبيلة هذيل تغير عليهم بسيوف مصلتة . واتضح أن الجمـع الذي وفد إلى المدينة كان يبيت الخدعة منذ البداية ، أو عند وصـولهم إلى هذه المنـطقـة استـولى عليهم الـطمـع فغيـروا رأيهم .

على كل حال ، يبدو أن هؤلاء قد اتفقوا مع قبيلة هـذيل على أسـر مبعوثي رسـول الله (ص) . وما إن أدرك الـرسـل جلية الأمرحتى بادروا إلى أسلحتهم وامتشقوا سيـوفهم للدفاع عن أنفسهم . إلا أن الهذليين أقسموا بأنهم لا ينوون قتلهم ، وإنمـا يقصـدون تسليمهم إلى قـريش في مكـة لقـاء مبلغ من المال ، وأنهم يعاهدونهم على عدم قتلهم .

فقال ثلاثة من الستة ، وكان منهم عاصم بن ثـابت : إننا

لن نقبل أبداً بعار قبول عهد من مشرك . وقاتلوهم حتى قتلوا .

أما الثلاثة الآخرون، وهم: زيد بن دثنة ، وخُبيب بن عدي وعبدالله بن طارق ، فقد أظهروا اللين واستسلموا .

فأوثق الهذليون وثاق هؤلاء الثلاثة وتوجهوا إلى مكة . وقبيل وصولهم استطاع عبدالله بن طارق أن يحرر يديه من الوثاق وأن يصل إلى سيفه ، إلا أن الأعداء لم يمهلوه بل قتلوه رجماً بالحجارة . وأخذوا زيداً وخبيباً إلى مكة وبادلوهما بأسيرين من هذيل كانا في مكة وعادوا من حيث أتوا .

فجاء صفوان بن أمية القرشي واشترى زيداً ممن اشتراه ، قاصداً قتله انتقاماً لدم أبيه الذي كان قد قتل في أحد أو في بدر . فأخذوه إلى خارج مكة لقتله ، واجتمع الناس لمشاهدة ما يجري .

جيء بزيد إلى موضع الأضاحي . فتقدم زيد بقدم ثابتة دون أن يظهر عليه أي تخاذل أو خوف، وكان أبو سفيان أحد الحاضرين، فأراد أن يستغل هذه اللحظات الأخيرة من حياة زيد لعله يستطيع أن ينتزع منه كلمة ندم أو أسف أو إنكار لرسول الله (ص) . فتقدم إليه وخاطبه قائلاً :

« أحلفك بالله ، ألا تحب الآن أن يقف محمد موقفك فنضرب عنقه ونعيدك سالماً إلى زوجتك وأطفالك ؟ » .

فقال زيد : .

« أقسم بالله إني لا أحب حتى أن تشاك قدم محمد بشوكة وأنا أقيم بين أهلي وعيالي » .

ففغر أبو سفيان فاه عجباً ، والتفت إلى قريش وقال : « والله إني لم أر أصحاباً يحبون قائدهم كما يحب محمداً أصحابه » .

وبعد فترة جاء دور خبيب بن عدي ، فجاءوا به ليصلبوه خارج مكة . وهناك طلب أن يمهلوه حتى يصلي ركعتين . فسمحوا له . . فصلى ركعتين بكل خشوع وتضرع ثم خاطب الجمع قائلاً :

« والله لو لم أخش اتهامكم إياي بالخوف من الموت لصليت طويلاً » .

وإذ أوثقوا خبيباً إلى أعواد المشنقة ، رفع صوته الرخيم المؤثر الذي نفذ إلى قلوب الحاضرين فألقى بعضهم أنفسهم على الأرض من شدة الخوف وهم يستمعون إلى خبيب بن عدي يناجي ربه :

« اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك فبلغه الغداة ما يصنع

بنـا . اللهم احصهم عـدداً واقتلهم بـدداً ولا تغـادر منهم أحداً » (١)

نموذج آخر :

نعرف من التاريخ أن حرب أحد انتهت بما كان فيه الحـزن والأسى للمسلمين ، إذ استشهـد فيها سبعـون ألفاً من المسلمين وعلى رأسهم حمـزة عم النبي (ص) . فقد انتصـر المسلمـون أول الأمر ، ولكنهم بعد ذلـك هوجمـوا على أثر تـرك المسلمين مرتفعاً كان رسول الله (ص) قد أمرهم بحـراسته وعـدم التخلي عنـه . فقتل بعض وتشتت بعض ولم يبق إلا القليـل حول رسـول الله (ص) يدافعون عنـه ، ومن ثم تمكنوا من وقف المشـركين من التقـدم . ومرة أخـرى استـطاع ذاك النفـر القليـل من جمـع شتات الجند وأوقفوا المشركين عند حدهم ، وخاصة بعد شيوع خبـر مقتـل رسـول الله (ص) الـذي أضعف من تمـاسـك المسلمين . ولكنهم مـا إن عرفـوا أن النبي (ص) ما يـزال حياً حتى عادت قوة الإيمان إلى قلوبهم .

كان الجرحى مجنـدلين على الأرض لا يعلمون بمـا يجري من حـولهم . كان سعـد بن الـربيـع بين الجـرحى ويحمـل في جسده إثني عشر جرحاً . وفي غضون ذلك مر به أحد المسلمين

---

(١) « سيرة ابن هشام » ج ٢ ص ١٦٩ ـ ١٧٣ .

الفارين وقال له : سمعت أن النبي قد قتل ، فقال سعد :

« **أشهد أن محمداً قد بلغ رسالة ربه ، فقاتل أنت عن دينك ، فإن الله حي لا يموت** » .

وبعد أن جمع رسول الله جنده راح يتفقدهم واحداً واحداً ليعرف الحي من الميت منهم ، فلم ير سعد بن الربيع ، فقال : « **من رجل ينظر ما فعل سعد بن الربيع أفي الأحياء هم أم في الأموات؟** فقال رجل من الأنصار : أنا أنظر يا رسول الله ما فعل . فنظر وجده جريحاً في رمقه الأخير. فأخبره أن النبي قد أرسله ليبحث عنه .

فقال سعد : فأبلغ رسول الله مني السلام وقل له : **إن سعد بن الربيع يقول : جزاك الله خيراً عنا ما جزى نبياً عن أمته ، وأبلغ قومك السلام عني وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : لا عذر لكم عند الله أن يخلُص إلى نبيك ومنكم عين تطرف** »[1] .

إن صفحات تاريخ صدر الإسلام مليئة بنماذج من هذا الولع العجيب والولاء الجميل . ليس في تاريخ البشر كله إنسان حظي بحب الرجال والنساء والأصحاب والكبار والصغار مثل ما حظي به النبي الأكرم (ص) بحيث أنهم كانوا يحبونه إلى الحد الذي رأيت .

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ، ط بيروت ، ج ٣ ص ٥٧٤. سيرة ابن هشام ، ج ٢ ص ٩٤ .

يقول ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ما خلاصته :

« لم يكن أحد يسمع كلام رسول الله (ص) إلا ووقعت محبته في قلبه ومال إليه . لذلك فقد كان قريش يطلقون على المسلمين في مكة اسم (الصباة) وكانوا يقولون : نخاف أن يصبوا الوليد بن المغيرة إلى دين محمد . ولئن صبا الوليد ، وهو ريحانة قريش ، لتصبون قريش بأجمعها. وكانوا يقولون : إن في كلام محمد لسحراً أشد فعلاً من الخمر . وكانوا ينهون أبناءهم عن مجالسته لئلا ينجذبوا إليه بسحر كلامه ويؤخذوا ببهاء طلعته .

عندما كان رسول الله (ص) يجلس في حجر إسماعيل بزاوية الكعبة ويقرأ القرآن بصوت مرتفع ، أو يذكر الله ، كان المشركون يضعون أصابعهم في آذانهم لكيلا يسمعوه فيقعون تحت تأثير سحر كلامه وعذوبته فيميلون إليه . وكانوا يغطون رؤوسهم ووجوههم بأرديتهم حتى لا يؤخذوا بسيماه الجذاب . لذلك كان أكثر الناس يقبلون على الدخول في الإسلام بمجرد سماع كلامه ورؤية ملامحه وتذوق حلاوة ألفاظه »[1] .

إن من بين حقائق الإسلام التأريخية ، التي تثير إعجاب كل

---

(١) شرح نهج البلاغة ، ج ٢ ص ٢٢٠ .

دارس للتاريخ وعالم بالإنسان وبالمجتمع ، ذلك الانقلاب الذي أحدثه الإسلام في حرب الجاهلية . فبموجب الموازين والحسابات العادية وبالطرق المألوفة في التربية والتعليم ، يتطلب مجتمع كذاك إلى مضي زمان طويل حتى ينقرض الجيل القديم الذي أَلِفَ الرذائل والفساد ويتربى جيل جديد مختلف . ولكننا هنا ينبغي ألا نغفل عن قوة الجذب والانجذاب التي قلنا : إنها مثل ألسنة اللهب تحرق المفاسد من جذورها .

كان أغلب أصحاب رسول الله (ص) يعشقونه العشق كل العشق ، وإن مطية الحب التي ركبوها هي التي طوت لهم ذلك الزمن الطويل في فترة قصيرة ، فغيروا مجتمعهم في أقصر وقت .

أظهـرت البحوث السـابقة قيمـة الحب وأثره ، واتضـح من خـلال ذلك أن حب الـطيبين وسيلة لتهذيب النفس وليس هـدفاً بذاته . فلننظر الآن إن كان الإسـلام والقرآن قـد اختارا لنـا حبيباً نمحضه الود ، أم لا .

عندما يكرر القرآن أقوال الأنبياء السابقين نرى أن كـلاً منهم قد أعلن :

﴿ وَمـا أَسْـأَلُكُمْ عَلَيْـهِ مِنْ أَجْـرٍ إِنْ أَجْـرِيَ إِلاّ عَلىٰ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ .

ولكنه يأمر النبي (ص) أن يقول :

﴿ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاّ الْمَوَدَّةَ فِي القُرْبىٰ ﴾[1] .

---

(١) سورة الشورى ، الآية ٢٣ .

هنا يتبادر للذهن هذا السؤال : لماذا لم يطلب الأنبياء السابقون أي أجر ، وطلب نبينا (ص) أجراً من الناس هو حب أقربائه الأدنين ؟ .

القرآن نفسه يجيب على هذا السؤال بقوله :

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ اللهِ ﴾[1] .

أي إن ما طلبته من أجر إنما يعود نفعه عليكم ، إذ أن هذه المودة ليست سوى ذريعة تتوصلون بها إلى إصلاح ذواتكم وإلى التكامل الإنساني . هذا هو الأجر ، ولكنه في الحقيقة خير آخر أعرضه عليكم ، وذلك لأن أهل البيت وذوي قربى رسول الله (ص) أناس طاهرو الذيل غير ملوثين **﴿ حجور طابت وطهرت ﴾** . فحبهم والتمسك بهم لا يعني سوى طاعة الله والتزام الفضائل . إن حبهم هو الإكسير الذي يقلب الأحوال ويوصل إلى الكمال .

ومهما يكن المراد من لفظة « قربى » فهي لا شك تشمل علياً .

يقول الفخر الرازي : « يروي الزمخشري في (كشافه) :

---

(١) سورة سبأ ، الآية ٤٧ .

عندما نزلت هذه الآية ، سئل النبي : يا رسول الله ، من هم ذوو القربى الذين يجب علينا حبهم ؟ فقال (ص) : **علي وفاطمة وابناهما** . يتضح من هذه الرواية أن هؤلاء الأربعة هم أقرباء النبي الذين على الناس أن يمحضوهم الحب والولاء . وهذا ما يمكن إثباته من عدة طرق :

١ ـ آية ﴿ **إلا المودة في القربى** ﴾ .

٢ ـ ما من شك في أن رسول الله (ص) كان يحب فاطمة حباً جماً ، وكان يقول : **فاطمة بضعة مني ، يؤذيني ما يؤذيها** . وكذلك كان يحب علياً والحسنين ، وقد وردت في هذا روايات كثيرة .

وعليه فإن حبهم فرض على الأمة أجمعين[1] ، لأن القرآن يقول : ﴿ **وَاتَّبِعُوه لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾[2] . ويقول أيضاً : ﴿ **وَلَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴾[3] . كل هذا يدل على

(١) إن حب النبي لهم لم يكن حباً شخصياً فحسب ، ولمجرد كونهم أبناءه وأنه لو كان آخرون غيرهم بمكانهم لأحبهم النبي أيضاً . بل كان النبي يحبهم لكونهم كانوا نماذج متميزين يحبهم الله ، فقد كان للنبي أبناء آخرون ، ولكنه لم يكن يحبهم إلى هذا الحد ، ولا كان حبهم فرضاً على الناس .

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٥٨ .

(٣) سورة الأحزاب ، الآية ٢١ .

أن حب آل محمد ـ وهم علي وفاطمة والحسنان . واجب على المسلمين كافة»[١] .

وهناك أحاديث شريفة كثيرة بشأن حب علي (ع) :

١ ـ يذكر ابن الأثير أن النبي خاطب علياً بقوله : « **يا علي ، إن الله عز وجل قد زينك بزينة لم يتزين العباد بزينة أحب إليه منها ، الزهد في الدنيا ، فجعلك لا تنال من الدنيا شيئاً ولا تنال الدنيا منك شيئاً ، ووهب لك حب المساكين ورضوا بك إماماً ورضيت بهم أتباعاً فطوبى لمن أحبك وصدق فيك ، وويل لمن أبغضك وكذب عليك ، فأما الذين أحبوك وصدقوا فيك فهم جيرانك في دارك ورفقاؤك في قصرك ، وأما الذين أبغضوك وكذبوا عليك فحق على الله أن يوقفهم مواقف الكذابين يوم القيامة** »[٢] .

٢ ـ يروي السيوطي أن النبي (ص) قال :

« **يا علي ، لا يحبك إلا مؤمن ، ولا يبغضك إلا منافق** »[٣] .

---

(١) (التفسير الكبير) للرازي ، طبعة مصر ، ج ٢٧ ص ١٦٦ .

(٢) (أسد الغابة) ج ٤ ص ٢٣ .

(٣) (كنز العمال) و(جمع الجوامع) للسيوطي ، ج ٦،ص ١٥٦

٣ ـ يروي أبو نعيم أن النبي (ص) خاطب الأنصار قائلاً :

« **يا معشر الأنصار ، ألا أدلكم على ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعده أبداً** ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : **هذا علي فأحبوه بحبي وأكرموه بكرامتي ، فإن جبريل أمرني بالذي قلت لكم من الله عز وجل** »[1] .

وثمة روايات أوردها أهل السنة عن رسول الله (ص) أنه قال : « **إن النظر إلى وجه علي عبادة ، والحديث عن فضائل علي عبادة** » .

١ ـ ينقل المحب الطبري عن عائشة أنها قالت : « **رأيت أبي كثير النظر إلى وجه علي ، فقلت له : أراك يا أبي كثير النظر إلى وجه علي . فقال : بنيتي ، لقد سمعت رسول الله (ص) يقول : النظر إلى وجه علي عبادة** »[2] .

٢ ـ أخرج الديلمي عن عائشة أن رسول الله (ص) قال :

---

(١) حلية الأولياء ، ج ١ ص ٦٣ . ومثل هذا روايات كثيرة . وقد صادفنا في كتب أهل السنة المعتبرة أكثر من تسعين رواية بهذا المعنى . أضف إلى ذلك ما ورد في كتب الشيعة .

(٢) (الرياض النظرة) ج ٢ ص ٢١٩ وغيرها كثير صادفنا منها أكثر من ٢٠ رواية .

« **خير إخوتي علي ، وخير أعمامي حمزة . وذكر علي عبادة** »[1] .

لقد كان علي أحب الخلق عند الله ورسوله ، ولا شك في هذا .

يقول أنس بن مالك :

« في كل يوم كان أحد أبناء الأنصار يقوم على خدمة رسول الله (ص) . وفي يوم نوبتي جاءت أم أيمن بطعام من دجاج محمر وقالت : يا رسول الله ، لقد ابتعت هذه الدجاجة وطبختها بنفسي . فقال رسول الله : **اللهم ابعث إلي بأحب عبيدك ليشاركني في تناول هذا الطعام** .

وفي تلك اللحظة طرق الباب . فقال رسول الله : **يا أنس افتح الباب** . فقلت في نفسي : أدعو الله أن يكون من الأنصار . ولكني رأيت علياً عند الباب . فقلت : رسول الله مشغول . وعدت إلى حيث كنت .

فطرق الباب ثانية . فقال رسول الله : **افتح الباب** . فعدت أدعو الله أن يكون الطارق من الأنصار . وفتحت الباب وإذا

---

(١) (الصواعق المحرقة) ص ٧٤ . وهناك خمس روايات أخرى بهذا المعنى في كتب أهل السنة الموثقة .

بعلي . فقلت : إن النبي مشغول . وعدت إلى مكاني .

فطرق الباب مرة أخرى . فقال رسول الله : **يا أنس ، افتح الباب وأت به ، فلست أنت أول من أحب قومه ، ولكنه ليس من الأنصار** . ففتحت الباب وأدخلت علياً ، فجلس يأكل مع رسول الله (ص) [1] .

(١) (مستدرك الصحيحين) ج ٣ ، ص ١٣١ . هذه الرواية نقلت بصورة مختلفة في أكثر من ١٨ رواية في كتب أهل السنة .

سر حب علــي

ما سبب وقوع حب علي في القلوب ؟ .

ســر الحب لم يكتشف لحد الآن ، أي لا يمكن حصــره ضمن قـانـون معين ، بحيث يمكن القـول انـه إذا حصـل كـذا يحصـل كذا ، إلا أن في الحب ـ ولا شـك ـ سراً . فقـد يكون في المحبوب شيء يغشي بصـر المحب فيجـذبه إليـه . وإذا ما اشتد هذا الجذب وارتفع الحب إلى أعلى الدرجات ، قيل : إنه العشق . ولقـد كـان علي محبـوب القلوب ومعشـوق النــاس ، فلماذا ؟ وكيف ؟ .

فيم امتيــاز علي بحيث أثـار العشق فـولهت بـه القلوب ، فاصطبغ بصبغة الحياة الخالدة ؟ .

لماذا ترى القلوب أنها شديـدة القرب منـه ، ولا تحسبه قـد مات ، بل تراه حياً يرزق ؟ .

لا شك أن مبعث الحب فيه ليس جسمه، لأن جسمه لم يعد الآن بيننا ، وما كنا أحسسنا به . إن حبه ليس من قبيل حب الأبطال الشائع في كل الأمم . . كما نكون قد جانبنا الصواب إن قلنا : إن حبنا علياً تابع لحبنا الفضائل الأخلاقية والإنسانية ، وإن حب علي هو حب الإنسانية . . صحيح أن علياً كان تجسيداً للإنسان الكامل ، وصحيح أن الإنسان يحب مثل الإنسانية السامية .

ولكن لو أن جميع الفضائل التي امتاز بها علي من الحكمة ، والعلم ، والتضحية ، ونكران الذات ، والتواضع ، والأدب ، والمحبة ، والعطف ، والأخذ بيد الضعيف ، والعدالة ، والحرية ، وحب الحرية ، واحترام الإنسان ، والإيثار ، والشجاعة ، والمروءة ، والفتوة نحو العدو ، والسخاء والجود والكرم .

أقول : لو أن كل ما تحلى به علي من الفضائل لم يكن مصطبغاً بالصبغة الإلٓهية ، لما كان على هذا القدر الذي نراه عليه اليوم من استثارة للانفعال واجتذاب للحب . فعلي محبوب لكونه مرتبطاً بالله . إن قلوبنا ترتبط في أعماقها ، وبغير وعي منا ، بالله .

ولما كان علي آية الله العظمى ومظهر صفات الله في

أعيننا ، فقد عشقناه . . في الحقيقة إن سند حب علي هو ما يربط النفوس بالله ، ذلك الرابط الذي كان في الفطرة دائماً . ولما كانت الفطرة خالدة ، فحب علي خالد أيضاً .

سودة الهمدانية المحبة لعلي وقفت أمام معاوية تصف علياً فقالت :

صلى الإله على روح تضمنها
قبر فأصبح فيه العدل مدفونا
قد حالف الحق لا يبغي به بدلاً
فصار بالحق والإيمان مقرونا

صعصعة بن صوحان العبدي واحد آخر من المولعين بعلي حباً . كان من القلة الذين حضروا دفن علي في ذلك الليل البهيم . وبعد أن تم الدفن وقف صعصعة على القبر واضعاً إحدى يديه على فؤاده والأخرى قد أخذ بها التراب ويضرب به رأسه ، ثم قال :

« بأبي أنت وأمي ـ يا أمير المؤمنين ـ هنيئاً لك يا أبا الحسن ، فلقد طاب مولدك ، وقوي صبرك ، وعظم جهادك ، وظفرت برأيك ، وربحت تجارتك ، وقدمت على خالقك ، فتلقاك الله ببشارته ، وحفتك ملائكته ، واستقررت في جوار المصطفى ، فأكرمك الله بجواره ، ولحقت بدرجة أخيك

المصطفى ، وشربت بكأسه الأوفى ، فاسأل الله أن يمن علينا باقتفائنا أثرك والعمل بسيرتك ، والموالاة لأوليائك ، والمعاداة لأعدائك ، وأن يحشرنا في زمرة أولئك .

فقد نلت ما لم ينله أحد ، وأدركت ما لم يدركه أحد ، وجاهدت في سبيل ربك بين يدي أخيك المصطفى حق جهاده ، وقمت بدين الله حق القيام، حتى أقمت السنن، وأبرت الفتن، واستقام الإسلام، وانتظم الإيمان، فعليك مني أفضل الصلاة والسلام.

بك اشتد ظهر المؤمنين، واتضحت أعلام السبل، وأقيمت السنن، وما جمع لأحد مناقبك وخصالك. سبقت إلى إجابة النبي (ص) مقدماً مؤثراً ، وسارعت إلى نصرته ، ووقيته بنفسك ، ورميت سيفك ذا الفقار في مواطن الخوف والحذر ، قصم الله بك كل جبار عنيد ، وذل بك كل ذي بأسٍ شديد ، وهدم بك حصون أهل الشرك والكفر والعدوان والردى، وقتل بك أهل الضلال من العدى.

فهنيئاً لك يا أمير المؤمنين. كنت أقرب الناس من رسول الله (ص) قرباً وأولهم سلماً وأكثرهم علماً وفهماً، فهنيئاً لك يا أبا الحسن. لقد شرف الله مقامك، وكنت أقرب الناس إلى رسول الله (ص) نسباً ، وأولهم إسلاماً، وأوفاهم يقيناً، وأشدهم قلباً، وأبذلهم لنفسه مجاهداً، وأعظمهم في الخير نصيباً.

فلا حرمنا الله أجرك، ولا أذلنا بعدك، فوالله لقد كانت حياتك مفاتح للخير ومغالق للشر ، وإن يومك هذا مفتاح كل شر ومغلاق كل

خير. ولو أن الناس قبلوا منك لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ولكنهم آثروا الدنيا على الآخرة»[1] .

نعم، لقد اختاروا الدنيا لأنهم لم يستطيعوا الوقوف مع عدل علي واستقامته حتى ظهرت أيدي الجمود الفكري من الأكمام وقتلت علياً .

ليس لعليّ (ع) نظير من حيث كونه موضع حب عارم من لدن أناس ضحوا برؤوسهم في سبيل حبه، وارتقوا المشانق في سبيل الولاء له . إن الصفحات العجيبة التي كتبها هؤلاء في التاريخ لتثير الحيرة والدهشة، وهي مفخرة من مفاخر تاريخنا . إن دماء هذه النخبة تلطخ أيدي مجرمين أرجاس مثل زياد بن أبيه وابنه عبيد الله والحجاج بن يوسف والمتوكل، وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان .

---

(١) (بحار الأنوار) ج ٤٢ ص ٢٩٥ و٢٩٦ الطبعة الجديدة .

(٢)

قوة دافعة علــي

- علي يصنع الأعداء .
- الناكثون والقاسطون والمارقون .
- ظهور الخوارج .
- عقائد الخوارج .
- الخوارج والخلافة .
- الخوارج والخلفاء.
- انقراض الخوارج .
- أشعار أم روح ؟ .
- الخوارج وديمقراطية علي .
- قيام الخوارج وطغيانهم .
- سمات الخوارج .
- سياسة رفع القرآن على الرماح .
- ضرورة مكافحة النفاق وأهميتها .
- علي الإمام والقائد الحق .

علي يصنع الأعداء

سوف نقصر بحثنا هذا على فترة خلافته التي امتدت أربع سنوات وبضعة أشهر . كان علي دائماً تلك الشخصية ذات القوتين ، قوة الجذب وقوة الدفع . فمنذ صدر الإسلام نرى مجموعة من الناس يتحلقون حوله ، ونرى آخرين ليسوا على وفاق تام معه ، وقد يعانون الأمرين من وجوده .

ولكن زمن خلافته والأزمنة التي تلت استشهاده ، تعتبر فترة ظهور علي تاريخياً وفيها تتجلى قوتا الجذب والدفع عنده ، وهما يزدادان قوة كلما قوي احتكاكه بالناس ، مثلما كانتا أضعف قبل خلافته .

كان علي من الذين يصطنعون الأعداء ويوجدون المتذمرين . وكان هذا من مفاخر علي الكبرى . إن كل امرىء يسلك سلوكاً معيناً وله هدف يناضل من أجله ، وعلى الأخص

إذا كان ثورياً يسعى لتحقيق أهدافه المقدسة ومن الذين يصفهم الله تعالى بقوله :

﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ﴾[1] .

لا بد أن يكون كذلك . لذلك فإن أعداءه ـ وعلى الأخص في فترة حياته ـ لم يكونوا أقل عدداً من أصحابه ، إن لم يكونوا أكثر .

واليوم ، إذا أُبرزت شخصية علي ـ بغير تحريف ـ على حقيقتها ، فإن الكثيرين ممن يدعون محبته ينحازون إلى صفوف أعدائه .

بعث رسول الله (ص) عليّاً على رأس جيش إلى اليمن . وعند العودة عزم على لقاء النبي في مكة . وعندما اقترب من مكة أسرع لملاقاة رسول الله (ص) بعد أن أقام على العسكر رجلاً منهم .

فقام هذا بتوزيع الحلل التي كانت مع الجيش على الجنود لكي يدخلوا مكة في حلة قشيبة . ولكن علياً عند عودته اعترض على هذا العمل واعتبره منافياً للانضباط ، لأن الواجب يقضي بالحصول على أوامر النبي (ص) بشأن تلك الحلل قبل

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٥٤ .

التصرف فيها . وكان ذلك ـ في الحقيقة ـ يعتبر في نظر عليّ تصرفاً في بيت المال قبل أخذ موافقة قائد المسلمين .

لذلك أمر علي الجند بخلع تلك الحلل وإرجاعها إلى حيث كانت ، حتى يرى رسول الله (ص) رأيه في توزيعها . إلا أن هذا لم يرق لأفراد الجيش ، وما إن وصلوا مكة وأخذ رسول الله (ص) يسألهم عن أحوالهم ، حتى شكوا إليه علياً وخشونته بشأن الحلل .

فوقف رسول الله (ص) وخاطبهم بقوله :

« أيها الناس لا تشكوا علياً ، فوالله ، إنه لأخشن في ذات الله من أن يشكى »[1] .

لم يكن على يحابي أحداً في الله ، بل إنه كان إذا راعىٰ أحداً أو داراه فإنما كان ذلك في سبيل الله . وهذا ـ لا ريب ـ يخلق الأعداء ويملأ بالألم قلوب الذين امتلأت قلوبهم بالطمع والجشع .

لم يكن بين أصحاب رسول الله (ص) من له محبون مضحون ، كما لم يكن بينهم من له أعداء ألداء شديدو الخطر

(١) (سيرة ابن هشام) ج ٤ ص ٢٥٠ .

مثلما كان لعليّ ، كان عليّ رجلاً هاجمه أعداؤه حتى في جنازته وهو ميت .

وكان هو نفسه دارياً بكل هذا وقد تنبأ به . لذلك أوصى أن يُعَفّى على قبره حتى لا يعرفه أحد غير أبنائه ، إلى أن مضى على ذلك قرن من الزمان ، وزال الأمويون ، وانقرض الخوارج أو ضعف بأسهم ، وضمرت مشاعر الحق والانتقام في القلوب . . عند ذلك أعلن ابنه الإمام جعفر الصادق (ع) عن مكان مدفنه الشريف .

الناكثون والقاسطون والمارقون

دفع علي أثناء خلافته ثلاث طوائف وطردهم وكافحهم .

أصحاب الجمل وقد اطلق عليهم اسم الناكثين .

وأصحاب صفين الذي قال عنهم : إنهم القاسطون .

وأصحاب النهروان ، وهم الخوارج الذين وصفهم بأنهم المارقون[1] :

« فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة ، ومرقت أخرى ، وقسط آخرون »[2] .

---

(١) الواقع إن رسول الله (ص) هو الذي أطلق عليهم تلك الأسماء ، إذ قال له : **ستقاتل بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين** . هذه الرواية يذكرها ابن أبي الحديد في شرحه نهج البلاغة (ج ١ ص ٢٠١) ويقول : إن هذه الرواية إحدى أدلة نبوة رسول الله (ص) لأنها إخبار صريح بالمستقبل وبالغيب مما لا يجرى معه أي تأويل .

(٢) نهج البلاغة ، الشقشقية ، خ ٣ .

كـان الناكثـون ـ من حيث طبيعتهم ـ من محبي المال ، من أصحـاب المطامـع وطـالبي الامتيـازات . فكـلامـه في العـدل والمساواة موجه في أغلبه إلى هؤلاء .

أمـا القـاسـطون فكـانـوا من ذوي الميـول السيـاسيـة من المنـافقين . كانـوا يسعون لـلاستيلاء على زمـام الحكم للقضـاء على حكـومـة الإمـام عليّ وقيـادتـه . عـرض عليـه بعضهم أن يجاريهم ويساويهم ويحقق بعض طلباتهم . . فرفض ، لأنـه لم يكن على تلك الشاكلة . كان قـد اضطلع بـالأمر لإحقـاق الحق ومحق الظلم ، لا لتأييد الظلم وتـرويجه .وكـان معاويـة وصحبه ـ من جهـة أخـرى ـ لا يـرتضـون الأسس التي أقـام عليّ عليهـا حكمه . كانوا يريدون أن يكون لهم ـ وحدهم ـ كـرسي الخلافـة الإسـلاميـة ، فكـانت مقـاتلة علي هؤلاء بمثـابـة مقـاتلة النفـاق والرياء .

أما الطائفة الثالثـة المارقـة فقد كـانوا شـديدين في التعصب الديني الأعمى ومن الجهلة الخطرين .

هؤلاء ، كلهم كانت دافعة علي شديدة عليهم بحيث ما كان يمكن أن يتساهل معهم أبداً .

إن من بعض مظاهر إنسـانية علي الكـاملة ، هي أنه عنـدما بدأ بالعمل الإيجابي واجه طوائف متعـددة وانحرافـات متنوعـة ،

فحاربها كلها . فمرة نراه يقف بوجه عبدة المال ومحبي الدنيا ، ومرة نراه يصارع محترفي السياسة ممن لهم عشرة أوجه ومائة وجه ، ومرة يكون صراعه مع الجهلة المنحرفين من ذوي الظاهر المتدين .

ننعطف ببحثنا الآن إلى هذه الفئة الأخيرة ، الخوارج ، فهؤلاء ، وإن يكن أمرهم قد انتهى ، إلا أن لهم تاريخاً جديراً بالدرس والاستعبار ، كما أن لأفكارهم جذوراً امتدت إلى سائر المسلمين . فبعد هذه القرون الاربعة عشر الطويلة ، وبعد زوال أشخاصهم وحتى اسمائهم ما زالت روحهم متفشية في هياكل هؤلاء المتدينين الجامدين الذين يقفون حجر عثرة في طريق تقدم الإسلام والمسلمين.

ظهور الخوارج

كلمة (الخوارج) تعني المتمردين ، وهي من (خرج)[1] التي تـأتي مع حـرف الجـر (علىٰ) . وقـد ظهـر هؤلاء من بين

---

(١) خرج فلان على فلان : برز لقتاله . وخرجت الرعية على الملك : تمردت .
وتعبير (الخوارج) يقصد به المعنى الثاني ، لأنهم خرجوا على عليّ إبّان حكمه وتمردوا عليه . وبما أنهم أقاموا تمردهم ذاك على أساس ديني ، فقـد أصبحوا نِحلة ولصق اسم الخوارج بهم ولم يطلق على الذين خرجوا بعدهم على سلطان زمانهم .
ولو لم يكن للخوارج مدرسة وعقائد خاصة لمضوا مثل سائر المتمردين بعدهم . إلا أنهم كانت لهم معتقداتهم ، وهذه غدت فيما بعد ذات موضوع قائم بذاته ، على الرغم من أنهم لم ينجحوا أبداً في تأسيس حكم وحكومة ، ولكنهم نجحوا في تأسيس ميدان فقهي وأدبي لعقائدهم . (راجع « ضحى الإسلام » ج٣ ص٣٤٠ - ٣٤٧ ط٦)
كان هناك آخرون ممن لم تتح لهم فرصة الخروج وإن كانوا من الخوارج عقيدة ، كالذي يقال عن عمرو بن عبيد وبعض آخر من المعتزلة . إن بعض المعتزلة الذين كانوا يعتقدون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أو في خلود مرتكب=

أحداث صفين في آخر يوم كانت الحرب فيه قد اتجهت لصالح الإمام عليّ ، حيث قام معاوية ـ بعد استشارة عمرو بن العاص ـ بخدعة ماهرة . لقد أدرك يومذاك أن جميع محاولاته وآلامه قد انهارت بغير فائدة . ولم يبق بينه وبين الهزيمة إلا خطوة واحدة ، فرأى أنه بغير الحيلة لا يمكن أن ينجو .

فأمر برفع المصاحف على رؤوس الرماح ـ إشارة إلى كونهم مسلمين ومن أهل القبلة والقرآن ـ مطالبين بوضع القرآن حكماً بينهم . لم يكن هذا شيئاً جديداً ، فقد سبق للإمام علي أن اقترحه عليهم فرفضوه ، وهم كانوا ما يزالون يرفضونه ، إلا أنهم اتخذوه ذريعة ينجون بها من الهزيمة المنكرة .

وراح علي ينادي أن اضربوهم فهم يتخذون من صفحات القرآن ذريعة يدرأون بها عن نفسهم الهلاك، وبعد ذلك يبقون في غيهم سادرين . إن صفحات القرآن من حيث كونها ورقاً لا قيمة لها بإزاء حقيقة القرآن . إنني أنا حقيقة القرآن ومظهره . وهؤلاء

= الكبائر ـ كما يعتقد الخوارج ـ كانوايعبرون عنهم بأنهم « يرون رأي الخوارج » بل لقد كان هناك عدد من النسوة يؤمن بأفكار الخوارج ، كما جاء في (الكامل) للمبرد ، ج٢ ص١٥٤ .

وعليه ، فإن بين مفهوم كلمة (الخوارج) اللغوي ومفهومها الاصطلاحي عموم من وجه .

يرفعون ورقاً وخطاً لكي يقضوا على المعنى والحقيقة .

وتنادى عدد من جنود علي ممن جهلوا حقيقة الدين ـ ولم يكونوا قلة ـ ماذا يقول عليّ ؟ أنحارب القرآن ؟ إننا حاربنا لإحياء القرآن ، وهاهم يستسلمون له ، فلماذا الحرب بعد ذلك ؟ وقال عليّ : أنا أيضاً أقول حاربوا من أجل القرآن ، ولكن هؤلاء لا شأن لهم بالقرآن ، بل يتخذون لفظ القرآن وكتابته وسيلة لحفظ أرواحهم .

في كتاب الجهاد من الفقه الإسلامي موضوع تحت عنوان « **تترس الكفار بالمسلمين** » . ويكون هذا في حالة حرب المسلمين مع الكفار ، فيعمد الكفار إلى وضع أسرى المسلمين في الخطوط الأمامية يتترسون بهم ليتقدموا هم إلى الامام ، بحيث أن المسلمين إذا أرادوا الدفاع عن أنفسهم أو الهجوم على العدو لوقف تقدمه ، سيكون عليهم بالضرورة أن يزيحوا من طريقهم إخوتهم المسلمين الأسرى . أي إنهم لن يكونوا قادرين على الوصول إلى العدو المحارب إلا بقتل أولئك المسلمين ، فإن الإسلام يجيز هنا قتل المسلم في سبيل مصلحة الإسلام العليا وفي سبيل حفظ حياة بقية المسلمين .

وأولئك أيضاً يعتبرون من الشهداء الذين استشهدوا في سبيل الله ، إلا أن على المسلمين أن يدفعوا دية دمائهم إلى

ذويهم من بيت مال المسلمين[1] .

وهـذا لا يختص به الفقـه الإسلامي ، بـل هـو من الأمـور المسلم بها في القوانين الدولية التي تقـول : إذا استخدم العـدو القـوى الداخليـة لمصلحتـه ، فيجـوز القضـاء على تلك القـوى للتمكن من العدو وإجباره على الانسحاب .

ففي الوقت الذي يقول فيه الإسـلام : اضرب حتى المسلم الحي ليتحقق النصـر للإسـلام ، لا يكون ثمـة داع للكـلام على مجرد أوراق وصحائف . . إن احترام الورق وما كتب عليه يكون بسبب احترام المعنى والمحتوى . وكانت تلك الحرب في سبيل المحتوى ، ولكن هؤلاء جعلوا الورق وسيلة لكي يـزيلوا المعنى والمحتوى من الوجود .

ولكن الجهل والسذاجة حالا ـ كما يحول الستـار السميك ـ دون رؤيتهم الحقيقة الواضحة ، وقالوا : إننا فضلاً عن كوننـا لا نحـارب القرآن ، فـإن علينا أن نقف بـوجه من يقـدم على هـذا المنكر وأن ننهى عنه ، فنقاتل من يقاتل القرآن .

لم يكن قد بقي على النصر النهائي إلا ساعة ، وكان مـالك الأشتـر ، ذلك الجنـدي الشجاع المضحي ، يـوالي تقدمـه نحو

---

(١) (اللمعة) ج١ ، كتاب الجهاد ، الفصل الأول . و(الشرائع) كتاب الجهاد .

خيمة القيادة ليستولي عليها ويزيل آخر شوكة من طريق الإسلام . في تلك اللحظة ضغطت تلك الطائفة على عليّ وهددوا بأنهم سوف يهجمون عليه من الخلف إذا لم يوقف الحرب . وكلما أصر عليّ على رأيه ازداد أولئك إصراراً على رأيهم .

أرسل عليّ إلى مالك أن أوقف الحرب واترك الميدان . فرد عليه بأنه لو أجاز له الاستمرار بضع دقائق لأنهى الحرب وأنهى العدو معاً .

فشهروا السيوف قائلين سنقطعك إرباً إرباً أو تأمره بالرجوع .

فعاد يرسل إليه إنك إن شئت أن ترى علياً حياً فاترك الحرب وعد . فرجع مالك ، واستبد الفرح بالعدو لأن حيلته قد انطلت .

توقفت الحرب حتى يحتكموا إلى القرآن ، فيؤلفوا لجنة التحكيم ويحكم حكام الجانبين بما في القرآن والسنة مما يتفق عليه الجانبان ، لتنتهي الخصومة ، او ليزيدوا الاختلافات اختلافاً آخر .

قال عليّ : فليعيّنوا حَكمَهم كي نعيّن ـ نحن أيضاً ـ حَكمَنا .

فعين أولئك بالإجماع عمرو بن العاص ، عصارة الخديعة والمخاتلة .

واقترح علي عبد الله بن عباس السياسي ، أو مالكاً الأشتر المؤمن المضحي ذا البصيرة ، أو أي رجل من أمثالهما .

إلا أن اولئك الحمقى كانوا يفتشون عن ضريب لهم ، فانتخبوا أبا موسى الأشعري الذي كان قليل التدبير ، كما لم يكن على وفاق تام مع عليّ (ع) . وكلما حاول عليّ وأصحابه أن يبينوا لأولئك الناس أن أبا موسى لم يكن الرجل القادر على ذلك الأمر ، أبوا وقالوا : لن نرضى عنه بديلاً . فقال : ما دام الأمر كذلك ، فافعلوا ما بدا لكم . فأرسلوه حكماً يمثل علياً وأصحابه إلى مجلس التحكيم .

وبعد أشهر من التشاور ، انتهى الأمر بعمرو بن العاص أن يقول لأبي موسى الأشعري : أرى خير المسلمين في إقالة علي ومعاوية كليهما من الحكم ، ونتنخب ثالثاً ، ولن يكون سوى عبد الله بن عمر ، صهرك فقال أبو موسى : صدقت ، فما العمل ؟ فقال : تخلع أنت علياً من الخلافة ، وأخلع أنا معاوية . وبعد ذلك سيختارالمسلمون خليفة لهم ، ولن يكون غير صهرك عبد الله بن عمر ، فتنام الفتنة وتقتلع جذورها .

وتم اتفاقهما على هذا الأمر ، ونادى مناديهم في الناس أن

اجتمعوا لتستمعوا إلى الحكم النهائي .

واجتمع الناس ، والتفت أبو موسى إلى عمرو بن العاص وطلب إليه أن يصعد المنبر ليعلن رأيه . فقال عمرو : كيف أصعد المنبر قبلك وأنت الشيخ الوقور من أصحاب رسول الله (ص) : حاش لله أن تبلغ بي الجرأة هذا الحد فأتكلم قبلك .

فنهض ابو موسى وارتقى المنبر ، والقلوب تدق بعنف في الصدور ، والعيون تكاد تخرج من محاجرها نحو الخطيب ، والأنفاس تكاد تتوقف مبهورة انتظاراً للنتيجة . وتكلم أبو موسى فقال : إننا بعد التشاور رأينا أن من صلاح الأمة أن لايبقى عليّ ولا معاوية . وأن المسلمين لهم الخيار في اختيار من يشاؤون للخلافة . ثم خلع خاتمه من إصبع يده اليمنى وقال : إنني أخلع علياً عن الخلافة كما أخلع خاتمي هذا من اصبعي . ونزل عن المنبر . .

قام عمرو بن العاص وارتقى المنبر وقال : إنكم سمعتم قول أبي موسى الأشعري في كونه خلع علياً عن الخلافة . أنا أيضاً أخلعه عن الخلافة كما خلعه أبو موسى . ونزع خاتمه من يده اليمنى وألبسه أصبع يده اليسرى وهو يقول : وأنصب معاوية للخلافة مثلما أضع الخاتم في إصبعي هذا . ونزل عن المنبر .

هنا أدرك الخوارج ـ الذين أوجدوا هذا الأمر بأنفسهم ـ مدى الخطأ فيما فعلوا . ولكنهم لم يكونوا يدركون أين كان موضع الخطأ . لم يقولوا : إن خطأنا يكمن في قبولنا الاستسلام لخديعة عمرو بن العاص وفي إيقافنا الحرب . كما أنهم لم يقولوا : إن خطأنا بعد القبول بالتحكيم كان في اختيار (الحكم) بجعلنا أبا موسى نداً لعمرو بن العاص . بل كانوا يقولون : إن جعلنا إنسانين حكمين في دين الله كان كفراً ومخالفاً للشرع ، فلا حكم إلا لله .

جاءوا إلى علي وقالوا : لقد أخطأنا وقبلنا بالتحكيم ، فأصبحنا نحن وأنت من الكافرين . إننا تبنا إلى الله ، فتب أنت أيضاً ، فقد تضاعفت مصيبتنا .

فقال علي : التوبة خير ولا بأس بها . أستغفر الله من كل ذنب .

فقالوا : هذا لا يكفي ، بل عليك أن تعترف بأن التحكيم كان إثماً وأنك تتوب من هذا الاثم .

فقال : إنني لم أقبل بالتحكيم ولا طلبته . أنتم الذين أردتموه ، وها أنتم تشاهدون النتيجة ، ثم كيف أقول بحرمة شيء لم يحرمه الإسلام وأعتبره إثماً ، ثم أعترف بذنب لم أرتكبه ؟! .

هنا بدأ نشاط هؤلاء كفرقة دينية . كانوا في البداية فرقة باغية متمردة ، ولهذا أطلق عليهم اسم الخوارج ، ولكنهم شيئاً فشيئاً وضعوا لعقائدهم أصولاً وقواعد ، وانتظموا في حزب كان سياسياً أول الأمر ثم أصبح فرقة دينية ثم انتقل الخوارج إلى القيام بنشاطهم كأصحاب مذهب ديني وراحوا يدعون له .

ثم بعد ذلك فكروا في ضرورة اكتشاف جذور المفاسد في دنيا الإسلام ، فتوصلوا إلى القول بأن عثمان وعلياً ومعاوية قد أخطأوا وأثموا ، وأن عليهم أن يكافحوا الفساد الذي ظهر ، وأن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر . وهكذا ظهر مذهب الخوارج باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

إن في فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شرطين رئيسين ، الأول : البصيرة في الدين ، والثاني : البصيرة في العمل .

وقد جاء في الروايات أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مع فقدان البصيرة في الدين ، يكون ضرره أكثر من نفعه . أما البصيرة في العمل فهي لازمة للشرطين الواردين في الفقه باسم « **احتمال التأثير** » و « **عدم ترتب مفسدة** » ومرجع الحكم في هذين يعود إلى العقل والمنطق[1] .

---

(١) أي ان القصد من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الترويج « للمعروف »

غير أن الخوارج كانوا يفتقرون إلى البصيرتين الدينية

= وإزالة « المنكر » . وعليه ، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ينبغي القيام بهما عند وجود الاحتمال بترتب أثر على ذلك . فإذا قطعنا بعدم وجود أي احتمال بترتب أي أثر عليهما ، فما وجه الوجوب في القيام بهما ؟

ثم إن أصل تشريع هذه الفريضة هو القيام بما يؤدي إلى تحقق فائدة للمسلمين ، فلا بد من القيام بها بحيث لا تؤدي إلى مفسدة أكبر من التي أريد النهي عنها . هذان الظرفان تلزمهما البصيرة في العمل . فالذي لا يملك البصيرة في العمل لا يستطيع أن يتنبأ بما إذا كان سيترتب على ذلك العمل أثر أم لا . من هنا جاء في الحديث إن الأمر بالمعروف غير البصير أفساده أعظم أصلاحه .

إن احتمال ترتب الفائدة لم يشترط في الفروض الأخرى ، وإنه إذا وجد احتمال الأثر فليفعل ، وإلا فلا ، على الرغم من أن في أداء كل فريضة نفعاً ، إلا أن تشخيص ذلك النفع ليس من مسؤولية المكلف . . ففي الصلاة لم يقل الشرع : إنك إذا احتملت فيها فائدة فصل ، وإن لم تحتمل فلا تصل . كذلك الصوم ، لم يقل أحد : إذا احتملت فيه فائدة فصم ، وإن لم تحتمل فلا تصم ، اللهم إلا القول بخصوص الصوم : إنك إن احتملت فيه الضرر فلا تصم .

إذن ، لا وجود لشرط احتمال الأثر في الفروض الأخرى كالحج والزكاة والجهاد . ولكن هذا القيد موجود في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فمن الواجب معرفة ما يحتمل أن يكون له من أثر ورد فعل ، وما إذا كان في القيام به مصلحة للمسلمين وللإسلام أم لا . أي إن إدراك وجود الأثر يقع على عاتق المنفذ نفسه .

في القيام بهذه الفريضة ، لكل فرد ـ بل من الواجب عليه ـ أن يشرك العقل والمنطق والبصيرة في العمل لمعرفة فائدته لأن هذه الفريضة ليست تعبدية .

إن وجود شرط إعمال البصيرة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متفق عليه بإجماع الفرق الإسلامية ، باستثناء الخوارج الذين ظلوا على جمودهم الفكري

والعملية . كانوا أناساً جهلة لا بصيرة عنـدهم بشيء ، بل كـانوا يرون هذه الفريضة من الفرائض التعبديـة ، وكانـوا يقولـون : إنه يجب القيام بذلك قياماً أعمى .

= وجفافهم وتعصبهم في القول بأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكـر فريضـة تعبدية ، وليس فيها شرط احتمال الأثر وعدم ترتب مفسدة ، بل هي فريضة يجب القيام بها بغير جدل أو كلام . وهكذا كـان هؤلاء يثورون أو يغتـالون الأشخاص استناداً إلى عقيدتهم هذه ، على الرغم من معرفتهم بعدم جدوى ذلك ، وبأن دماءهم تذهب هدراً .

أصول عقائد الخوارج

يرجع أصل فكرة الخوارج إلى الأمور التالية :

١ ـ تكفير عليّ وعثمان ومعاوية وأصحاب الجمل وأصحاب التحكيم ـ الذين يرتضون التحكيم عموماً ـ إلا إذا تابوا عن رضاهم بالتحكيم .

٢ ـ تكفير الذين لا يقولون بتكفير عليّ وعثمان ومعاوية والآخرين الذين ذكرناهم .

٣ ـ الإيمان ليس عقيدة قلبية فحسب ، بل إن العمل بالأوامر وترك النواهي جزء من الإيمان ، فالإيمان مركب من الاعتقاد والعمل .

٤ ـ وجوب الثورة على الوالي والإمام الظالم دون قيد أو شرط يقولون ليس للقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أي

شرط ، وإن من الواجب القيام بذلك دائما وبدون استثناء[1] .

لقد ظهر هؤلاء بهذه العقائد واعتبروا جميع الناس على وجه الأرض كفاراً مخلدين في النار وأهدروا دمائهم .

(١) (ضحى الإسلام) ج٣ ص٣٣٠ نقلاً عن كتاب (الفرق بين الفرق) .

إن الفكـرة الوحيـدة عند الخـوارج ، والتي يرى المُحْـدَثون اليوم أنها فكرة لامعة ، هي نظريتهم في الخلافة والتي كانت ذات صبغة ديمقراطية . كانوا يقولون : إن الخلافة يجب أن تتعين في انتخابات حرة ، وأجدر النـاس بها من كـان ذا تقوى وصـلاح ، سواء أكان من قريش أم لم يكن ، وسواء أكان من إحدى القبائل المرموقة أم من إحدى القبائل الضائعة ، وسواء أكان عـربياً أم لم يكن .

ثم بعـد انتخابـه ومبايعتـه بالخـلافـة ، إذا خـالف مصلحـة المجتمع الإسلامي فإنه يعـزل عن الخلافـة ، وإذا رفض فلا بـد من مقاتلته وقتله [1] .

---

(١) (ضحى الإسلام) ج٣ ص٣٣٢ .

إنهم في هذا يقفون في موقف التعارض مع الشيعة الذين يقولون : إن الخلافة أمر آلهي ، وإن الخليفة يجب أن يعينه الله .

إنهم . . . كذلك يقفون موقف المعارض لأهل السنة الذين يقولون إن الخلافة يجب أن تكون في قريش ويمسكون بمقولة : إنما الأئمة من قريش .

والظاهر أن نظريتهم هذه في الخلافة لم يتوصلوا إليها في أول ظهورهم ، بل إن شعارهم المعروف « **لا حكم إلا لله** » وما جاء في نهج البلاغة أيضاً[1] يدل على أنهم بادىء الأمر كانوا يقولون بأن الناس والمجتمع لا حاجة بهم إلى حكومة ، بل على الناس أن يعملوا وفق كتاب الله .

ولكنهم بعد ذلك رجعوا عن هذا القول وبايعوا عبد الله بن وهب الراسبي بالخلافة[2] .

---

(١) (نهج البلاغة) الخطبة ٤٠ وشرح ابن أبي الحديد ، ج٢ ص٣٠٨ .
(٢) (الكامل) لابي الأثير ، ج٣ ، ٣٣٦ .

الخوارج والخلفاء

كان الخوارج يعتبرون خلافة أبي بكر وعمر صحيحتين بالنظر لكونهما قد اختيرا بالانتخاب الحر ، ولأنهما لم يخرجا عن المحجة الصالحة ولم يرتكبا ما يخالف الشريعة . كما أنهم كانوا يرون صحة خلافة عثمان وعلي ، ولكنهم يقولون : إن عثمان قد حاد عن المسير الصحيح في أواخر السنة السادسة من خلافته وتغاضى عن مصالح المسلمين ، لذلك كان معزولاً عن الخلافة ، وبما أنه استمر في الحكم فقد كفر ووجب قتله . أما عليّ ، فبقبوله التحكيم بغير أن يتوب بعد ذلك فقد كفر أيضاً ووجب قتله . ولهذا فقد كانوا يتبرأون من خلافة عثمان منذ سنته السابعة ، ومن خلافة علي بعد قبوله التحكيم[1] .

كذلك . . . كانوا على خلاف مع الخلفاء الآخرين وكانوا دائماً في حرب معهم .

---

(١) (الملل والنحل) للشهرستاني .

انقراض الخوارج

لقد ظهرت هذه الجماعة في أواخر العقد الرابع من القرن الأول الهجري على أثر خطأ خطير ، ولم يدم أمرهم أكثر من قرن ونصف ، فنتيجة لتهورهم وجرأتهم الجنونية أثاروا عليهم الخلفاء فتعقبهم هؤلاء حتى أبادوهم وأبادوا مذهبهم معهم وانقرضوا نهائياً في أوائل تأسيس الدولة العباسية .

إن منطقهم الجاف العديم الروح ، وجفاف سلوكهم وفظاظته ، وبعده عن الحياة . . وأخيراً فإن تهورهم الذي ألغى حتى « التقية » بمفهومها الصحيح المنطقي ، أدى إلى زوالهم .

لم تكن مدرسة الخوارج مدرسة قادرة على البقاء فعلاً ، ولكنها أبقت أثرها ، فقد نفذت أفكار الخوارج وعقائدهم في مختلف الفرق الإسلامية ، فنحن ما زلنا نرى حتى الآن (نهروانيين) كثيرين لا يقلون خطراً على الإسلام ومعاداة له من

الـداخل عمـا كانـوا عليـه في زمـان عليّ ، بمثـل مـا أن هنـاك الكثيرين من أمثال معاوية وعمرو بن العاص كانوا مـوجودين ومـا زالـوا ، وهم يستغلون (النهـروانيين) ـ اعــداءهم ـ في الـوقت المناسب .

أشعار أم روح

إن البحث في الخـوارج وأفكارهم بـاعتبارهم يمثلون فـرقـة ـ دينية ـ لا طائل تحته ، لأن مذهبهم لم يعد له وجود اليوم . إلا أن دراستهم ودراسـة أعمالهم لا تخلو من نفـع يعود علينـا وعلى مجتمعنـا ، إذ أن مـذهبهم وإن يكن قـد انقـرض إلا أن روحـه ظلت باقية وحلت في الكثيرين منا .

هنا لا بد لنا من مقدمة قصيرة :

بعض المـذاهب يمكن أن يموت من حيث كـونه شعـاراً ،

ولكن روحه تظل حية ، كما أن العكس ممكن أيضاً ، فقد يبقى مسلك من حيث كونه شعاراً ، حياً ، وتموت روحه . ولهذا يمكن أن يتبـع فرد أو أفـراد ـ من حيث الشعـار ـ مـذهبـاً من المذاهب ، ومن حيث الروح لا يتبعون ذلك المـذهب . وقد يكون العكس ، فبعضهم قد يتبعون روحياً مذهباً من المذاهب ،

مع أنهم يرفضون شعاراته .

فنحن جميعاً نعلم ـ مثلاً ـ أن المسلمين افترقوا فرقتين بعد رحيل رسول الله (ص) : السنة والشيعة ، أولئك ينطوون ضمن إطار عقيدة معينة ، وهؤلاء ينطوون ضمن إطار عقيدة معينة أخرى .

يقول الشيعة : إن الخليفة بعد النبي (ص) مباشرة هو عليّ بن أبي طالب، لأنه (ص) قد عيّنه خليفة بعده بأمر من الله سبحانه وتعالى . أي إن ذلك المنصب حق خاص له بعد النبي (ص) .

والسنة يقولون : إن الإسلام في تعاليمه لم يقل بشيء خاص فيما يتعلق بالخلافة والإمامة ، بل عهد إلى الناس أنفسهم بأمر اختيار أميرهم وقائدهم ، وإنه ـ في الأكثر ـ يجب أن يكون من قريش .

إن الشيعة يوجهون الانتقاد إلى عدد من أصحاب رسول الله (ص) والشخصيات المعروفة ، بينما يقف السنة ـ في هذا ـ في النقطة المقابلة للشيعة تماماً ، فهم يحسنون الظن بكل من اتصف بصفة (**الصحابي**) بصورة مفرطة . يقولون : إن الصحابة جميعاً عادلون صادقون . التشيع يبني على النقد والبحث والاعتراض و (استخراج الشعرة من العجين) .

والتسنن يبني على الحمل على الصحة والتسويغ و (إن شاء الله كانت قطة) .

في هذا العصر والزمان الذي نعيش فيه ، هل يكفي أن يقول أحد : إن علياً هو خليفة رسول الله مباشرة ، حتى نعتبره شيعياً بغير أن ننتظر منه أي شيء آخر ، ومهما تكن روحيته وطراز تفكيره ؟ .

ولكننا إذا رجعنا إلى صدر الإسلام نجد روحية خاصة هي روحية التشيع ، تلك الروحية التي كانت هي وحدها القادرة على قبول وصية رسول الله (ص) بشأن علي قبولاً كاملاً من دون أن تصاب إرادتها بالشك والتردد .

وفي النقطة المقابلة لتلك الروحية وذلك الطراز من التفكير كانت تقف روحية أخرى وطراز آخر من التفكير كان يغمض عينيه عن وصية رسول الله (ص) بمختلف التفسيرات والتأويلات ، على الرغم من الإيمان الكامل به (ص) .

إن نشأة هذا الانشعاب الإسلامي كان سببها - في الحقيقة - أن فريقاً من المسلمين - وكانوا الأكثرية - لم تنظر إلا إلى الظاهر ، إذ أن بصرها لم يكن حديداً وعميقاً بما يكفي للوصول إلى باطن الأمور ورؤية كل الوقائع . كانوا يرون الظاهر ويحملون الأمور على الصحة في كل الحالات ، فيقولون : إن

عدداً من كبار الصحابة والشيوخ الذين لهم سابقة في الإسلام قد ساروا في طريق لا يمكن أن نقول عنه إنه ليس هو الطريق الصحيح .

أما الفريق الآخر ، وهم الأقلية ، فكانوا يقولون : إن الشخصيات تحوز على احترامنا وتقديرنا ما التزمت الحق واحترمته . فإذا رأينا أن هؤلاء الشيوخ الذين لهم سابقة في الإسلام هم الذين يدوسون بأقدامهم على الأصول الإسلامية ، فإنهم يفقدون احترامنا ، لأننا وراء الأصول لا الشخصيات . وهذه هي الروح التي ولد بها التشيع .

إننا عندما نتابع في التأريخ الإسلامي سلمان الفارسي وأبا ذر الغفاري ومقداد الكندي وعمار بن ياسر وأمثالهم نريد أن نرى ما الذي حملهم على التحلق حول علي وترك الأكثرية ؟ .

إننا نرى أنهم أناس أصوليون وعارفون بها ، متدينون وعارفون بالدين . كانوا يقولون : إننا ينبغي ألا نستسلم في أفكارنا وإدراكنا للآخرين لكيلا نخطيء إذا ما أخطأوا . لقد كانت روحيتهم - في الواقع - روحية تتحكم فيها الأصول والحقائق ، لا الأشخاص والشخصيات .

كان أحد أصحاب الإمام عليّ قد انتابه الشك في حرب

الجمل . كان ينظر إلى الطرفين ، ففي طرف يرى عليّاً ومعه كبار رجال الإسلام يضربون بسيوفهم في ركابه . وفي الطرف الآخر كان يرى زوجة النبي (ص) التي قال الله فيها وفي زوجات النبي الأخريات ﴿ وأَزْواجُهُ أُمَّهاتُكُمْ ﴾[1] ويرى في ركابها طلحة ، من طلائع المسلمين ومن أقدمهم سابقة في الإسلام ، ومن أمهر الرماة ، قدّم خدمات جلى للإسلام . ويرى الزبير ، أسبق من طلحة إسلاماً ، ذلك الرجل الذي كان مع علي يوم السقيفة .

كان الرجل يزداد حيرة كلما أمعن في الفكر . ما جلية الأمر يا ترى ؟ فعليّ وطلحة والزبير من طلائع الإسلام والمضحين في سبيله ، ومن أقوى حصونه المدافعة عنه . ولكنهم الآن يواجه بعضهم بعضاً ، فأيهم أقرب إلى الحق ؟ ما الذي ينبغي له في مثل هذا الحال ؟ .

لا شك أننا لا يجوز لنا أن نلوم هذا على حيرته تلك وتردده ، فلعلنا لو كنا في ظروف مماثلة لتأثرنا بشخصيتي طلحة والزبير وماضيهما المجيد .

ولكننا اليوم إذ نرى علياً وعماراً وأويساً القرني وغيرهم إلى جانب ، ونرى عائشة والزبير وطلحة يواجهونهم في طرف

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٦ .

آخر ، لا ينتابنا الشك والتردد في القول بأن هذا الطرف الثاني هو الذي يبدو عليه سيماء الجرم ، أي إن آثار الجريمة والخيانة بادية في وجوههم ، فبالنظر إلى وجوههم وملامحهم كان الرائي لا يخطىء في الحكم عليهم بأنهم من أهل النار .

أما لو كنا نعيش في ذلك الزمان ونرى سوابقهم قريبة منا ، فلعله لم يكن من المستبعد أن نقع في تردد مماثل .

إننا اليوم إذ نعرف أن الطرف الأول كان على حق والطرف الثاني على باطل ، فلأننا بعد مضي الزمن ، واتضاح الحقائق ، ومعرفة عليّ وعمار من جهة وطلحة والزبير وعائشة من جهة أخرى استطعنا أن ندرك كنه الأمور وأن نقضي بالحق . أو إننا إذا لم نكن من أهل الدرس والتحقيق ، فإننا ـ في الأقل ـ قد لُقنّا بذلك منذ طفولتنا . أما في حينه ، فإن هذين العاملين لم يكن لهماوجود .

على كل حال ، جاء هذا الرجل إلى أمير المؤمنين وقال له : « أيمكن أن يجتمع زبير وطلحة وعائشة على باطل ؟ » إن شخصيات من كبار صحابة رسول الله (ص) كيف يمكن أن يخطئوا ويسيروا في طريق الباطل ؟ .

أما جواب علي (ع) فيصفه الدكتور طه حسين ،

الأديب والكاتب المصري ، بقوله : إنه قول لا أحكم منه ولا أرفع . فمنذ أن انطفأ الوحي وانقطع نداء السماء لم يسمع كلام عظيم كهذا[1] .

قال علي :

« إنك لملبوس عليك . إن الحق والباطل لا يعرفان بأقدار الرجال . اعرف الحق تعرف أهله ، واعرف الباطل تعرف أهله » .

فليس صحيحاً أن تتخذ من بعض الناس مقاييس لك ، ثم تروح تقيس الحق والباطل عليهم ، فتقول : إن العمل الفلاني حق لأن فلاناً وفلاناً وافقوه ، وإن العمل الفلاني باطل لأن فلاناً وفلاناً خالفوه . . كلا ، لا يجوز أن يجعل الأشخاص معايير للحق والباطل . بل إن الحق والباطل هما اللذان يجب أن يقاس عليهما الأشخاص . نعم ، عليك أن تكون عارفاً بالحق والباطل ، لا بالأشخاص والشخصيات ، فتقيس الأفراد ـ سواء أكانوا كباراً أم صغاراً ـ وفق مقاييس الحق ، فإن انطبقت عليهم تقبلتهم . وعندئذ لا يمكن أن يقال : هل إن عائشة وطلحة والزبير على باطل ؟ .

---

(١) (علي وبنوه) ص٤٠ .

هنا جعل عليّ الحق نفسه مقياساً للحق ، وذلكم هو روح التشيع ولا شيء غيره . ففرقة الشيعة ـ في الواقع ـ قد ولدت من نظرة خاصة تعطي الأهمية للأصول الإسلامية لا للأفراد والأشخاص . ولهذا كان لا بد أن يتربى الشيعة الأوائل أناساً نَقدَة يحطمون الأصنام .

كان علي فتى في الثالثة والثلاثين من عمره عند وفاة رسول الله (ص) ، لا يتبعه إلا قلة يعدون على أصابع اليدين ، وفي قباله شيوخ في الستين مع الكثرة الكاثرة . كان منطق هذه الأكثرية هو أن هذا هو طريق المشايخ أو المشايخ لا يخطئون ، وإننا لعلى أثرهم سائرون . أما الأقلية فكان منطقها يقول : إن ما لا يخطىء هو الحق ، وعلى المشايخ أن يدوروا حيثما دار الحق .

من هذا يتضح أن الذين يتخذون شعار التشيع شعاراً لهم ، ولكن روحهم ليست روح التشيع ، هم كثرة كثيرة

إن طريق التشيع ـ مثل روحه ـ طريق تمييز الحق واتّباعه . وإن من أهم آثار ذلك هو الجذب والدفع ـ لا كل جذب ولا كل دفع ، فقد قلنا من قبل : إن بعض الجذب يكون جذب الباطل والجرم والمجرم ، وبعض الدفع يكون دفع الحق والفضائل الإنسانية ـ إنما نقصد جذباً ودفعاً على

شاكلة ما لعليّ (ع) ، فالشيعة تعني نسخة مطابقة لسيرة علي (ع) . فعلى الشيعة أن يكونوا مثل علي ـ أيضاً ـ يمتلكون قوتي الجذب والدفع .

كانت هذه المقدمة لازمة لتبيان أن من الممكن أن يموت مذهب من المذاهب ، ولكن تبقى روحه حية في أناس آخرين هم بحسب الظاهر ليسوا من أتباع ذلك المذهب ، بل قد يعتبرون أنفسهم من مخالفيه . إن مذهب الخوارج ميت اليوم . أي لا توجد على وجه الأرض ـ اليوم ـ فرقة دينية تطلق على نفسها اسم الخوارج ويتبعها عدد من الناس .

ولكن هل ماتت روح هذا المذهب أيضاً ؟ .

ألم تحل هذه الروح في أتباع مذاهب أخرى ؟ .

أليس فينا ـ مثلاً ، والعياذ بالله ـ جمع من ذوي الجمود الديني حلت فيهم تلك الروح ؟ .

هذا موضوع يلزمه بحث خاص به ، فقد نستطيع أن نرد على هذا السؤال إن عرفنا مذهب الخوارج جيداً ، وما قيمة البحث في الخوارج إلا من هذا الباب . علينا أن نعرف لماذا « **دفعهم** » عليّ عنه ، أي لماذا لم تجذبهم قوة جاذبة عليّ ، بل على العكس من ذلك ، طردتهم قوة دافعته ؟ .

إن الذي لا شك فيه ـ كما سنعرف ذلك قريباً ـ هو أن العناصر الروحية التي أثرت في شخصية الخوارج وشكلت روحيتهم لم تكن كلها من تلك العناصر التي تؤثر فيها قوة دافعة عليّ ، فقد كان فيها الكثير من العناصر المتميزة النيرة التي لولا اقترانها بعدد من النقاط المظلمة لوقعت تحت تأثير قوة جاذبة عليّ حتماً . ولكن الجوانب المظلمة في روحهم كانت من الكثرة والاتساع بحيث أنها وضعتهم في صف أعداء علي (ع) .

لقد عامل علي الخوارج بمنتهى الحرية والـديمقراطيـة . لقد كان خليفة وكانـوا من رعايـاه ، فكان قـادراً على أن ينفذ بحقهم مـا كـانـوا يستحقـونـه . ولكنـه لم يسجنهم ولم يجلدهم ، بـل إنـه لم يقـطع حتى نصيبهم من بيت المـال ، وكان ينظر إليهم نظرته إلى الآخرين .

ليس في هذا ما يدعو إلى العجب في سيـرة حياة عليّ ، إلا أنك قلما تجد نظيراً له في تاريخ العالم .

لقد كانوا أحراراً في الإعـلان عن عقيدتهم أنى شـاءوا . وكان الإمام عليّ وأصحابه يقابلونهم بمعتقداتهم بكل حرية ، ويجادلونهم فيها ويتبادلون الأدلة والاستدلال .

لعل هذا القدر من الحرية لم يسبق له وجود في العالم . فمـا من حكـومـة عـاملت معـارضيهـا بهـذا القـدر من

الديمقراطية . لقد كانوا يأتون إلى المسجد ويقطعون على علي خطبته كان علي يوماً على المنبر ، فجاءه رجل يسأل سؤالاً ، فرد عليه عليّ الجواب فوراً . فصاح أحد الخوارج من الحاضرين : « قاتله الله ، ما أفقهه ! » فأراد الآخرون أن يلقوا عليه درساً في الأدب ، فمنعهم علي قائلاً : **اتركوه ، إنه إنما شتمني أنا** .

لم يكن الخوارج يأتمون بعلي في الصلاة ، لأنهم كانوا يقولون بكفره ، وإنما كانوا يحضرون إلى المسجد ولا يصلون خلفه ، وكانوا أحياناً يؤذونه . كان علي يوماً يصلي وقد ائتم به الناس . فقرأ أحد الخوارج ـ وهو ابن الكواء ـ بأعلى صوته :

﴿ وَلَقَد أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِن الخاسِرِينَ ﴾[1] .

كان ابن الكواء يريد بذلك أن يذكر علياً بأننا نعرف سوابقك في الإسلام ، فقد كنت أول من أسلم ، وقد آخى الرسول بينه وبينك ، وضحيت بنفسك في ليلة المبيت إذ نمت في فراش النبي وعرضت نفسك للسيوف المشرعة ، ولسنا ننكر خدماتك للإسلام ، ولكن الله قال لرسوله أيضاً :

(١) سورة الزمر ، الآية ٦٥ .

إنك لو أشركت لحبطت أعمالك ، وبما أنك قد كفرت فقد أهدرت أعمالك تلك كلها .

فما الذي فعله علي بإزاء ذلك ؟ ما أن ارتفع صوت الرجل بتلاوة القرآن حتى سكت علي حتى انتهى الرجل ، فاستأنف عليّ الصلاة ، فعاد ابن الكواء يكرر الآية ، فسكت علي ثانية . كان علي يسكت لأنه حكم القرآن الذي يقول :

﴿ **إذا قُرِىءَ القُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا** ﴾[1] .

ولهذا ينبغي على المأمومين السكوت عندما يتلو الإمام القرآن .

وإذا تكرر هذا من ابن الكواء ، بقصد الإخلال بالصلاة ، تلا الإمام هذه الآية :

﴿ **فَاصْبِر إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌ وَلا يَسْتَخِفَنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ** ﴾[2] . فسكت ابن الكواء ولم يعد[3] .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ٢٠٤ .

(٢) سورة الروم ، الآية ٦٠ .

(٣) ابن أبي الحديد ، ٢٩٠ ص٣١١ .

قيام الخوارج وطغيانهم

اكتفى الخوارج في أوائل أمرهم بمجرد النقد والجدل الحر ، وكان علي يقابلهم ـ كما قلنا ـ دون أن يتعرض لهم بسوء ، ولم يقطع مرتباتهم من بيت المال . ولكنهم بعد أن يئسوا شيئاً فشيئاً من توبة علي . . بدلوا أسلوبهم وعزموا على الثورة . اجتمعوا في دار أحدهم حيث خطب فيهم صاحب الدار خطبة مثيرة ، ودعا أصحابه إلى الثورة باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وقد جاء في خطابه .

« أما بعد ، فوالله ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمن وينيبون إلى حكم القرآن ، أن تكون هذه الدنيا آثر عندهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والقول بالحق وإن مُنَّ وضُرَّ ، فإنه من يمن ويضر في هذه الدنيا فإن ثوابه يوم القيامة رضوان الله والخلود في جناته ، فأخرجوا بنا ـ إخواننا ـ من هذه القرية الظالم أهلها إلى كور الجبال أو إلى بعض هذه المدائن

منكرين لهذه البدع المضلة[1] .

فزاد بأقواله هذه من أُوار هيجانهم ، فتحركوا معلنين التمرد والثورة ، فقطعوا الطرق واتخذوا النهب والسلب حرفة[2] كانوا يريدون بذلك إضعاف الحكم وإسقاطه .

ها هنا لم يبق موضع للتغاضي وإطلاق الحرية ، لأن المسألة لم تعد مسألة إظهار العقيدة ، بل أصبحت إخلالاً بأمن المجتمع وتمرداً مسلحاً على حكومة شرعية . لذلك فقد تعقبهم علي ولحق بهم عند شاطىء النهروان ، فخطب فيهم ونصحهم وألقى عليهم الحجة ، ثم أعطى راية الأمان بيد أبي أيوب الأنصاري وقال : من استظل بالراية كان في أمان ، فرجع من الإثني عشر ألفاً ثمانية آلاف ، وركب الباقون رؤوسهم عناداً ، فهزموا شر هزيمة ولم يبق منهم سوى عدد معدود .

(١و٢) (الإمامة والسياسة) ص١٤١ ـ ١٤٣ . (الكامل) للمبرد ، ج٢ .

سِمات الخوارج

روحية الخوارج روحية خاصة . كانوا مزيجاً من القبح والجمال ، وبلغ جماع أمرهم أنهم وقفوا في صفوف أعداء علي ، فكان أن شخصية علي (دفعتهم) ولم (تجذبهم) .

إننا هنا نذكر الجانب الإيجابي الجميل عندهم ، كما نذكر جانبهم السلبي القبيح الذي جعل من روحيتهم في المجموع روحية خطرة ، بل مرعبة .

١ ـ الروحية المناضلة المضحية التي كانت تحملهم على الدفاع عن عقائدهم بكل شدة وصرامة . إننا نجد في تاريخ الخوارج حوادث من التضحية والفداء قل نظيرها في تأريخ البشر . وقد ربتهم روح التضحية ونكران الذات على الشجاعة والجرأة .

يقول عنهم إبن عبد ربه :

« وليس في الفرق كلها أشد بصائر من الخوارج ، ولا أشد اجتهاداً ، ولا أوطن أنفساً على الموت . منهم الذي طعن ، فأنفذه الرمح ، فجعل يسعى إلى قاتله ويقول : وعجلت إليك رب لترضى »[1] .

أرسل معاوية شخصاً كان ابنه من الخوارج ليعيد هذا الابن إليه ، فلم يستطع الأب إرجاع ابنه عن عزمه . وأخيراً قال له : أي بني ، سأذهب لآتي لك بوليدك الصغير لعل حنان الأبوة يعيدك إليه . فقال الابن : والله إني لأشوق إلى الضربة الشديدة مني إلى ولدي[2] .

٢ ـ كان الخوارج من المتعبدين المتنسكين ، يمضون الليل في العبادة ، لا تستميلهم الدنيا بزخارفها . عندما أرسل عليّ بن عباس يوم النهروان ليبذل لهم النصح ، عاد ابن عباس ووصفهم بقوله :

« لهم جباه قرحة لطول السجود ، وأيد كثفنات الإبل ، عليهم قمص مرحضة وهم مشمرون »[3] .

---

(١) (فجر الإسلام) ص٢٦٣ نقلاً عن (العقد الفريد) .

(٢) (فجر الإسلام) ص٢٤٣ .

(٣) (العقد الفريد) ج٢ ص٣٨٩ .

كان الخوارج متمسكين بأحكام الإسلام وظواهره أشد التمسك ، يبتعدون عن كل ما كانوا يرونه إثماً . كانت لهم معاييرهم الخاصة التي كانت تمنعهم من اقتراف أي مخالفة ، وكانوا ينفرون ممن يرتكب خطيئة . قتل زياد ابن أبيه أحد الخوارج ، ثم استجوب خادمه عنه ،فقال : ما قدمت له طعاماً في النهار ولا فرشت له فراشاً في الليل ، فقد كان صائماً نهاره وقائماً بالعبادة ليله[1] .

كل خطوة من خطواتهم كانت تنبع من العقيدة ، وكانوا ملتزمين في جميع أفعالهم ، وكانوا يسعون في نشر عقائدهم .

ولقد أوصى بهم علي (ع) فقال :

« لا تقتلوا الخوارج بعدي ، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه »[2] .

أي إنهم يختلفون عن معاوية وصحبه ، فالخوارج سعوا للوصول إلى الحق ولكنهم أخطأوا الطريق إليه ، ولكن الآخرين كانوا منذ البداية مخادعين ، ويسيرون في طريق

(١) (الكامل) للمبرد ، ج٢ ص١١٦ .

(٢) (نهج البلاغة) الخطبة٦ .

الباطل . لذلك فقتلكم الخوارج ينفع معاوية وهو أسوأ من هؤلاء وأخطر .

قبل أن نواصل القول في سائر سمات الخوارج ، وما دمنا في معرض الحديث عن زهدهم وتقواهم وتقدسهم ، لا بد من الإشارة إلى أن واحداً من جلائل أعمال الإمام علي ومن أعجبها وأبرزها في تاريخ حياته هو جرأته البالغة وشجاعته في كونه قد انبرى لمحاربة هؤلاء المتدينين الذين غلب عليهم الجفاف والتحجر والجمود الفكري والغرور .

لقد شهر علي سيفه بوجه جماعة يرى الناس عليهم علائم الصلاح وملامح التقوى والتزهد بادية ، خلقة ثيابهم ، يقضون أوقاتهم متعبدين .

فلو كنا نحن من أصحاب عليّ ، ورأيناه يشهر السلاح عليهم ، لكانت مشاعرنا تثور ، ولكنا نقف بوجهه معترضين ، ولفعله منكرين .

إن من بين الدروس القيمة حقاً في تاريخ التشيع خصوصاً ، وفي عالم الإسلام عموماً ، هو قصة الخوارج هذه .

لقد كان عليّ يدرك كل الإدراك أهمية عمله ذاك وعظمه ، وفي ذلك يقول :

« **فأنا فقأت عين الفتنة ولم يكن ليجترىء عليها أحد غيري ، بعد أن ماج غيهبها واشتد كلبها** »[1] .

إن لعليّ في هذا القول تعبيرين عجيبين :

الأول هو (**غيهب الفتنة**) أي ظلامها وشمولها وإثارتها للشك ، فقد كان ظاهر الخوارج على درجة من القدسية والتقوى بحيث أنه كان يثير شك كل مؤمن نافذ الإيمان في صحة ما يقوم به علي ، فكان هذا يخلق جواً من الغموض والظلام والشبهة والتردد .

أما تعبيره الثاني فهو قوله بما في تلك الفتنة من كَلَب (بالتحريك) . . والكَلَب هو الجنون المرضي الذي يصيب بعض الكلاب فتعض من تصادفه فتنقل إليه (مكروب) ذلك المرض المعدي . ففي عضة الكلب يسري الميكروب من لعابه إلى دم الإنسان أو الحيوان ، فلا يلبث المعضوض حتى يصاب بداء جنون الكلب نفسه ، ويهاجم الآخرين ويعضهم ، ناقلاً المرض إليهم أيضاً . فإذا دام هذا طويلاً كان من أخطر الأمور . ولهذا فإن العقلاء لا يترددون في قتل الكلب المسعور ليجنبوا الآخرين خطره .

---

(١) (نهج البلاغة) الخطبة ٩٢ .

هكذا يصفهم الإمام علي (ع) . إنهم كانوا كالكلاب المسعورة التي لا ينفع فيها دواء ، فكانوا لا يفتأون يعضون وينشرون البلاء فيزداد عدد المسعورين .

الويل للمجتمع الإسلامي إذا ظهر بينهم متدينون جافون جامدون جهلة لا يحيدون عن سبيلهم ، فيندفعون يعضون هذا وذاك . فأي قدرة تستطيع أن تقف في وجوه هذه الأفاعي التي لا ينفع فيها سحر ولا حيلة ؟ .

ما تلك الروح القوية الواثقة التي لا يصيبها الارتجاف أمام كل ذلك الزهد والتقوى ؟ وأي يد لا ترتعش وهي ترفع السيف لتنزله على هامات هؤلاء ؟ .

ولهذا يقول علي : « **ولم يكن ليجترىء عليها أحد غيري** » . إن أحداً من المسلمين المؤمنين بالله ورسوله والمعاد لم يكن ليجرأ على أن يشهر السيف في وجه هؤلاء ، عدا عليّ ببصيرته النافذة وإيمانه المكين .

إن أمثال هؤلاء إنما يجرؤ على قتلهم الذين لا يعتقدون بالله وبالإسلام ، لا المؤمنون الملتزمون من سائر الناس .

لذلك فإن علياً يفتخر بفعلته العظيمة قائلاً : « **فأنا فقأت عين الفتنة** » ودرأت عن المسلمين خطراً عظيماً كان قادماً إليهم مع هؤلاء المتدينين المتحجرين . فلا جباههم

المتقرحة من أثر السجود ؛ ولا ملابسهم الرثة وزهدهم ، ولا ألسنتهم الدائمة الذكر لله ، ولا حتى إيمانهم الراسخ وثباتهم ، لم تستطع أن تغيم على بصيرتي . فأنا وحدي الذي أدركت أني إن تركت هؤلاء يوطدون أقدامهم فإنهم سيصيبون الآخرين بدائهم ، ويجرون عالم الإسلام إلى التمسك بالظواهر والقشور وبالجمود الفكري والتحجر العقلي ، حتى يقصموا ظهر الإسلام . ألم يقل رسول الله (ص) : « **اثنان قصما ظهري : عالم متهتك وجاهل متنسك** » .

عليّ يريد أن يقول : لو لم أقم أنا بمحاربة الخوارج في دنيا الإسلام ، لما تجرأ أحد بعدي على القيام بذلك ، إذ ما كان أحد غيري يستطيع أن يرى فريقاً من الناس ثفنت جباههم من كثرة السجود ، وسلكوا مسالك المتدينين ، وهم في الوقت نفسه سر في طريق الإسلام . . أناساً يحسبون أنهم يعملون في سبيل الإسلام ، ولكنهم في الواقع من أعداء الإسلام ، ثم ينهض لمحاربتهم ويريق دماءهم . . أنا فعلت هذا .

لقد مهد عليّ بعمله ذاك الطريق أمام الخلفاء والحكام من بعده ، فأقدموا على محاربتهم وإراقة دمائهم ، بغير أن يعترض الجنود على ذلك ، على اعتبار أن عليّاً قد فعل ذلك

من قبل .

إن سيرة عليّ ـ في الحقيقة ـ قد فتحت الطريق للآخرين لكي يتمكنوا من مجالدة أناس ظاهري الصلاح والتقوى ، ولكنهم في الواقع حمقى جامدون .

٣ ـ كان الخوارج جهلة ، فكان من تأثير جهلهم ذاك أنهم لم يكونوا يدركون حقائق الأمور ويسيؤون التفسير . ومن ثم تشكل اعوجاج الفهم عندهم بالتدريج بصورة مذهب ديني ، بحيث أنهم لم يبخلوا بأعظم التضحيات في سبيل تثبيته . وفي البداية أظهروا تمسكهم بالفريضة الإسلامية (النهي عن المنكر) كأنهم فريق لا هدف لهم سوى إحياء تلك الفريضة الإسلامية .

هنا ينبغي علينا أن نتريث قليلاً لنمعن النظر ملياً في جزء من التأريخ الإسلامي .

عندما نرجع إلى السيرة النبوية نرى أن رسول الله (ص) خلال فترة بقائه في مكة مدة ثلاث عشر سنة لم يجز لأحد الجهاد ، ولا حتى الدفاع ، بحيث أن المسلمين أحسوا بالضيق من ذلك ، وهاجر جمع منهم إلى الحبشة بإذن من رسول الله (ص) ، ولكن الآخرين مكثوا وتحملوا العذاب حتى وافت السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة ، فأجاز

رسول الله (ص) الجهاد .

خلال فترة مكة تلقى المسلمون التعاليم ، وتعرفوا على روح الإسلام ، فنفذت الثقافة الإسلامية إلى أعماقهم ، فكانت النتيجة أنهم عند دخولهم المدينة كان كل منهم داعية من دعاة الإسلام الصادقين ، فكان النبي (ص) يرسلهم إلى الأطراف والأكناف فيؤدون واجبهم على خير وجه ، وإذا ما اشتركوا في الجهاد كانوا يعلمون ما هي الأهداف والمثل التي يحاربون من أجلها ، فكانوا ، كما قال عنهم علي (ع) :

« **وحملوا بصائرهم على أسيافهم** »[1] .

إن تلك السيوف المسقاة ، وأولئك النفر المتعلمون ، هم الذين استطاعوا أن يؤدوا رسالة الإسلام . عندما نقرأ التاريخ ونستمع إلى أقوال أولئك الذين لم يكونوا إلى ما قبل ذلك بسنوات يعرفون شيئاً غير السيف والبعير ، فإننا ليأخذنا العجب وتنتابنا الحيرة لدى اصطدامنا بثقافتهم الإسلامية وعلو تفكيرهم .

من المؤسف أنه في عهد الخلفاء كان الاهتمام منصباً ـ أكثر ـ على الفتوحات ، غافلين عن أن عليهم ـ بموازاة

(١) (نهج البلاغة) الخطبة ١٤٨ .

فتحهم أبواب الإسلام بوجوه الآخرين واستقبالهم في الإسلام ممن كان يجذبهم التوحيد في الإسلام والعدل والمساواة بين العرب والعجم - أن يعلموهم الثقافة الإسلامية لكي يتعرف الناس على روح الإسلام عن كثب .

كان الخوارج من العرب في الغالب وفيهم أفراد قلائل من غير العرب . ولكنهم جميعاً ، بعربهم وغير عربهم ، كانوا يجهلون الثقافة الإسلامية ، وكانوا كمن يريد أن يستعيض عما فيه من منقصة بالتشدد في الركوع والسجود والإطالة فيهما . وبهذا يصفهم علي (ع) فيقول :

« جُفاةٌ طَغامٌ وعبيدٌ أقزامٌ . جُمِّعُوا من كل أوب وتُلُقِّطُوا من كل شوب ، ممن ينبغي أن يُفَقَّهَ ويؤَدَّب ويُعَلَّم ويُدَرَّبَ ويُوَلَّى عليه ويُؤْخذ على يديه . ليسوا من المهاجرين والأنصار الذين تبوأوا الدار »[1] .

إن ظهور طبقة من المتدينين الجهلة ، الذين كان الخوارج جزءاً منهم ، قد كلف الإسلام غالياً . فبغض النظر عن الخوارج الذين كانوا - مع كل عيوبهم - يتحلون بالفضيلة والشجاعة والتضحية ، ظهر من هؤلاء فريق من المتنسكين الذين خلوا حتى من تلك الفضائل ، فأخذوا

---

(١) (نهج البلاغة) الخطبة ٢٣٦ .

يجرون الإسلام نحو الرهبانية والإنزواء ، وروجوا سوق التظاهر والرياء . ولما كان هؤلاء تعوزهم تلك الشجاعة التي تدفع بهم إلى إشهار السيف على أصحاب السلطة ، سلّوا سيف اللسان على أرباب الفضيلة ، فراحوا يلصقون تهمة الكفر والفسق واللادينية بكل صاحب فضيلة .

على كل حال ، فإن من أبرز سمات الخوارج هو الجهل . من جملة جهلهم عدم التفكيك بين ظاهر القرآن وباطنه ، أي بين خط القرآن وجلده وبين معناه . ولهذا انخدعوا بحيلة معاوية وعمرو بن العاص الواضحة .

لقد امتزجت (**الجهالة والعبادة**) في هؤلاء . فكان عليّ يريد أن يحارب جهالتهم ، ولكن لم يكن بالإمكان فصل جانب الزهد والتقوى والعبادة في هؤلاء عن جانب الجهل فيهم . بل إن عبادتهم كانت هي الجهالة بعينها . فقد كانت العبادة المصحوبة بالجهالة ، في نظر عليّ العالم بالإسلام علماً من الطراز الأول ، لا قيمة لها ، لذلك فقد ضربهم ، ولم تستطع ملامح الزهد والتقوى والعبادة فيهم أن تمنع عنهم علياً .

إن خطر جهل أمثال هؤلاء الأفراد والجماعات أكثر من مجرد الوقوع كآلات بيد الأذكياء الذين يريدونهم حجر عثرة

في طريق المصالح الإسلامية العليا . إن المنافقين الذين لا دين لهم يسعون دائماً لاستثارة المتدينين الحمقى ضد المصالح الإسلامية ، فيصبحون سيوفاً بأيديهم وسهاماً في أقواسهم .

وما أدق الوصف الذي يصف به علي (ع) هذه الحالة فيهم إذ يقول :

« ثم أنتم شرار الناس ومن رمى به الشيطان مراميه وضرب به تيهه »[1] .

قلنا : إن الخوارج بدأوا بهدف إحياء سنة إسلامية ، إلا أن جهلهم وعدم تبصرهم أوصلهم إلى ما وصلوا إليه ، فأخطأوا في تفسير القرآن ، فأدى هذا إلى تفردهم في مذهب معين وإلى سلوكهم مسلكاً خاصاً . لقد جاء في القرآن :

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إلاّ للهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفاصِلِينَ ﴾[2] .

(**الحكم**) في هذه الآية لله ، ولكن لا بد من معرفة ما هو المراد بالحكم .

---

(١) (نهج البلاغة) الخطبة ١٢٥ .

(٢) سورة الانعام ، الآية ٥٧ .

لا شك أن المراد بالحكم هنا هو القوانين والأنظمة التي تحكم حياة البشر . هذه الآية لا تعطي حق وضع القوانين لأحد سوى الله ، فذلك من الشؤون الخاصة بذات الله (أو بمن يمنحه الله صلاحيته) .

ولكن الخوارج اعتبروا الحكم بمعنى الحكومة والحَكَمية ، وصنعوا في ذلك شعاراً لهم وقالوا : **لا حكم إلا لله** . قاصدين بذلك إلى القول بأن الحكومة والحكمية والقيادة لله وحده ، كما أن لله وحده حق وضع الأحكام والقوانين ، وأن ليس لأحد غير الله أن ينصب نفسه حكماً أو حاكماً بين الناس ، مثلما ليس لأحد غير الله أن يسن قانوناً .

لذلك كانوا إذا رأوا الإمام عليّاً واقفاً يصلي أو خطيباً على المنبر ، نادوا بأعلى أصواتهم : **لا حكم إلا لله ، لا لك ولأصحابك يا علي** .

فكان يرد عليهم بقوله :

« كلمة حق يراد بها باطل . نعم إنه لا حكم إلا لله ، ولكن هؤلاء يقولون لا أمرة إلا لله . وأنه لا بد للناس من أمير بر أو فاجر ، يعمل في إمرته المؤمن ، ويستمتع فيها الكافر ، ويبلّغ الله فيها الأجل ، ويُجمع به الفيء ، ويُقاتل به العدو ، وتأمن به السبل ، ويؤخذ به للضعيف من

القوي ، حتى يستريح بر ويستراح من فاجر »[1] .

أي إن القانون لا يجري بنفسه ، بل لا بد من فرد أو جماعة تقوم بإجرائه وتنفيذه .

٤ ـ كان الخوارج أناساً قصيري النظر ضيقيه ، يدور فكرهم في أفق دون . كانوا يحصرون الإسلام والمسلمين في إطار ضيق محدود من الأفكار . كانوا ـ مثل غيرهم من قصيري النظر ـ يزعمون أن الجميع لا يفهمون جيداً ، أو لا يفهمون إطلاقاً ، وأنهم قد تجنبوا طريق الصواب فأصبحوا جميعاً من أهل النار .

إن أول ما يفعله قصيرو النظر كهؤلاء هو أنهم يصبغون ضيق نظرهم هذا بصبغة العقيدة الدينية ، ويحددون رحمة الله ، ويجلسون الله على كرسي الغضب دائماً وكأنه ينتظر من عباده أتفه زلة ليعذبهم عذاباً أبدياً .

إن واحداً من أصول عقائد الخوارج هو أن مرتكب الكبيرة ـ كالكذب والغيبة وشرب الخمر ـ كافر وخارج عن الإسلام ويستحق الخلود في النار . وعليه فإن جميع الناس ـ عدا نفر منهم ـ مخلدون في نار جهنم .

إن ضيق النظرة الدينية من سمات الخوارج ، ولكننا

(١) (نهج البلاغة) الخطبة ٤٠ .

اليوم نصادف هذه السمة في المجتمع الإسلامي على الرغم من انقراض الخوارج . وهذا هو الذي قصدنا إليه بقولنا : إن الخوارج قد مات شعارهم ، إلا أن روح مذهبهم ما يزال حياً إلى حد ما بين بعض الناس والطبقات .

إننا نرى بعضاً من ذوي الأدمغة الجافة يعتبرون جميع الناس ـ باستثناء أنفسهم ونفر معدود منهم ـ من الكفار والملحدين ، ويحددون دائرة الإسلام والمسلمين بأضيق الحدود .

قلنا في الفصل السابق : إن الخوارج كانوا يجهلون روح الثقافة الإسلامية . ولكنهم كانوا يتصفون بالجرأة . وقد أدى بهم جهلهم ذاك إلى أن يكونوا ضيقي النظر ، وهذا بدوره حملهم على التسرع في تكفير الناس وتفسيقهم بحيث أنهم حصروا الإسلام بأنفسهم فقط ، واعتبروا سائر المسلمين ـ الذين لم يكونوا يرتضون عقائدهم ـ كفاراً . وكان من جرأتهم أنهم كانوا يقصدون أرباب السلطة لكي يأمروهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر ، معرضين أنفسهم للقتل .

ثم قلنا : إن جمودهم الفكري وتنسكهم وتقدسهم وضيق نظرتهم بقي بعدهم إرثاً للآخرين بغير أن يبقى معه شيء من جرأتهم وشجاعتهم وتضحياتهم .

فكان أن ظهر الخوارج الجبناء ، أي أولئك المتقدسون الذين تركوا السيوف في أغمادها ، وتخلوا عن فكرة تقصد رجال السلطة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنها كانت خطراً عليهم ، ولكنهم راحوا يسلقون رجال الفضل والفضيلة بألسنة حداد ، فألصقوا بكل صاحب فضل تهمة من التهم ، بحيث أننا قلما نجد أحد الفضلاء في تاريخ الإسلام ممن لم يتخذه هؤلاء الخوارج هدفاً لسهام اتهاماتهم : فهذا ينكر وجود الله ، وذاك ينكر المعاد ، وآخر ينكر المعراج الجسماني ، والرابع صوفي ، والخامس كذا . . . إلخ . . .

ولو أننا أخذنا بأقوال هؤلاء لما وجدنا بين أظهرنا أي عالم إسلامي حقيقي ، فعندما يكفرون عليّاً فاقرأ على الآخرين السلام ، فابن سينا ، والخواجه نصير الدين الطوسي ، وصدر المتألهين الشيرازي ، وفيض الكاشاني ، والسيد جمال الدين الأسدآبادي ، وحتى محمد إقبال الباكستاني ، هم ممن تجرعوا جرعة من كأس هؤلاء .

وفي هذا يقول ابن سينا ما ترجمته :

(تكفير شخص مثلي ليس سهلاً جزافاً
فلا إيمان أقوى من إيماني)
(أنا نسيج وحدي في الدهر ، فإن أكن كافراً
فما عاد في الدهر مسلم أبداً)

ويقول نصير الدين الطوسي الذي كفره عالم اسمه (نظام العلماء) ما ترجمته :

(لئن كفرني نظام بلا نظام
فإن سراج الكذب لا ضياء له)
ولكني سوف أدعوه مسلماً
لأن جواب الكذب كذب مثله)

على كل حال ، لقد كان من سمات الخوارج البارزة ضيق أفقهم وقصر نظرهم ، مما دعاهم إلى الحكم على الآخرين بالكفر والإلحاد .

لقد فند الإمام علي (ع) مزاعمهم هذه ، وقال : إن النبي (ص) كان يقيم الحد على المذنب ثم يصلي على جنازته ، فلو كان مرتكب الكبيرة كافراً لما صلى النبي (ص) على جنازته ، لأن الصلاة على جنازة الكافر غير جائزة وقد نهى القرآن عن ذلك :

﴿ وَلاَ تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[1] .

« وقد علمتم أن رسول الله (ص) رجم الزاني ثم صلى

---

(١) سورة التوبة ، الآية ٨٤ .

عليه ثم ورثه أهله . وقتل القاتل وورث ميراثه أهله . وقطع السارق وجلد الزاني غير المحصن ، ثم قسم عليهما من الفيء ، ونكحا المسلمات ، فأخذهم رسول الله (ص) بذنوبهم ، وأقام حق الله فيهم ، ولم يمنعهم سهمهم من الإسلام ، ولم يخرج أسماءهم من بين أهله »[1] .

يقول : لنفرض أنني قد أخطأت فكفرت ، فلماذا تكفرون جميع المسلمين ؟ إذا ضل أحد وأخطأ فهل ينسحب ذلك على الآخرين فيدخلهم في زمرة الضالين المخطئين الذين يستحقون العقاب ؟ لماذا تسلطون سيوفكم على رقاب المذنبين ـ على حد زعمكم ـ وغير المذنبين معاً ؟ .

إن الإمام يأخذ عليهم وجهين من وجوه النقد ، فتدفعهم دافعته عنه من إتجاهين :

الأول : إنهم يحملون البريء ذنب المجرم ويعاقبونه على ذلك .

والثاني : إنهم يكفرون من يرتكب ذنباً ويخرجونه من إسلامه ، فيضيقون بذلك دائرة الإسلام بحيث أن من يضع قدمه خارج عدد من التعاليم فقد خرج عن الإسلام .

(١) (نهج البلاغة) الخطبة ١٢٥ .

يدين الإمام عليّ فيهم ضيق الأفق وقصر النظر . والواقع أن حرب عليّ على الخوارج لم تكن حرباً على أفراد ، بل كانت حرباً على طراز خاص من التفكير ، إذ لو لم يفكر أولئك الأفراد على هذه الشاكلة لما عاملهم علي تلك المعاملة . إنه قتلهم ليقتل أفكارهم ، ولكي يفهم القرآن على حقيقته ، ولكي يرى المسلمون الإسلام والقرآن كما هما وكما يريده لهما واضع قوانينهما .

إن قصر نظرهم واعوجاج تفكيرهم هما اللذان سهلا لخدعة رفع المصاحف أن تنطلي عليهم ، وخلقوا من أنفسهم أعظم خطر على الإسلام ، إذ منعوا علياً من أن يستأصل جذور النفاق إلى الأبد بالقضاء على معاوية وأفكاره قضاء مبرماً ، فكان ما كان بعد ذلك من الأحداث الفاجعة التي انصبت على المجتمع الإسلامي[1] .

---

(١) إن أهم الأحداث الفاجعة التي حلت بالمسلمين على أثر ذلك هي الضربات الروحية والمعنوية نزلت بالمسلمين . لقد أقام القرآن الدعوة للإسلام على التبصر والتفكير ، وهو الذي فتح باب الاجتهاد والادراك العقلي للناس :

﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين﴾

(٩ : ١٢٢)

إن الإدراك البسيط لأمر من الأمور لا يسمى (تفقهاً) . إنما التفقه هو الإدراك بإعمال التفكير والتعمق والتبصر :

﴿ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾

(٨ : ٢٩)

﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾

(٢٩ : ٦٩)

في مقابل هذا الأسلوب في التعاليم القرآنية التي كانت تريد أن يظل الفقه الإسلامي دائم الحركة والحياة ، اختار الخوارج الجمود والركود ، فحسبوا المعارف الإسلامية ميتة راكدة ، وأدخلوا في الإسلام الصورة والظاهر .

إن الإسلام لم يعن بالشكل والصورة والظاهر في الحياة أبداً ، بل كل عنايته تتجه نحو الروح والمعنى ، وهو طريق يوصل إلى تلك الاهداف والمعاني . إن الإسلام يضع رسم المعاني والأهداف وطريقة الوصول إليها ضمن إطار حكمه ، ويترك الإنسان حراً فيما عدا ذلك ، فيتجنب بذلك كل تصادم مع انتشار الثقافة والتمدن .

اننا لا نجد في الاسلام وسيلة مادية وشكلاً ظاهرياً له صبغة من (التقديس) بحيث يجد المسلم نفسه ملزماً بالتمسك بذلك الشكل والظاهر . . لذلك ، فإن تجنب التعارض مع مظاهر التوسع العلمي والحضاري يعتبر واحداً من الأمور التي تجعل من السهل اليسير انطباق هذا الدين على مقتضيات الزمان ، وتزيل أكبر مانع يحول دون خلوده مدى الدهر .

هذا هو نفسه التمازج بين التعقل والتدين ، فهو من جانب يحافظ على تثبيت الأصول وتمكينها ، وهو من جانب آخر يفصلها عن الشكل ، ويعطي الكليات التي قد تكون لها مظاهر متعددة ، إلا أن تلك المظاهر لا تغير من الحقيقة شيئاً .

بيد أن تطبيق الحقيقة على المظاهر والمصاديق ليس أمراً سهلاً يقدر عليه كل من هب ودب ، بل هو يتطلب إدراكاً عميقاً وفهماً سليماً . أما الخوارج فقد كانوا من ذوي الأفكار الجامدة ، وما كان لهم عون على إدراك ما وراء ما يسمعون =

= لذلك عندما أرسل علي (ع) ابن عباس ليحاججهم ، أوصاه قائلاً :
« لا تخاصمهم بالقرآن ، فإن القرآن حمال ذو وجوه ، تقول ويقولون . ولكن حاججهم بالسنة فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً » .
أي أن القرآن يعنى بالكليات ، فهم في مقام الاحتجاج قد يستشهدون بآية يعتبرونها مصداقاً لما يقولون ، وتستدل أنت بآية اخرى دليلاً على ما تقول ، وهذا ما لا يؤدي إلى النتيجة المطلوبة من الجدل ، فهم لا يملكون ذلك القدر من الإدراك الذي يمكنهم من استخلاص شيء من حقائق القرآن وتطبيقها على مصاديقها الحقيقية الصحيحة . بل كلمهم حسبما جاء في السنة لانها تشمل الأجزاء وهي صريحة في مصاديقها .
وهذه إشارة من الإمام (ع) إلى جمود الخوارج وجفاف عقولهم مع تدينهم ، الأمر الذي يشير إلى إمكان إنفصال التعقل عن التدين .
إن الجهالة والجمود الفكري هما اللذان أنجبا الخوارج ، فكانوا خلواً من القدرة على التحليل وعلى فصل الفكر عن المصداق .
ظنوا أنه إذا أخطأ التحكيم مرة فإن أساسه باطل وغير صحيح ، مع أن من الممكن أن يكون ذلك الأساس ثابتاً وصحيحاً ، وأن الخطأ قد وقع في التطبيق . لذلك فإننا نلاحظ في قضية التحكيم مراحل ثلاثاً :
١ ـ يشهد التأريخ أن علياً لم يرض بالتحكيم ، فقد أدرك أن عرض معاوية وأصحابه إنما هو (مكيدة) و(غدر) وقد أصر على رأيه هذا .
٢ ـ كان يقول إنه إذا كان لا بد من تشكيل لجنة للتحكيم ، فإن أبا موسى رجل ضعيف الحيلة والتدبير ولا يصلح لهذا الأمر ، فلا بد من اختيار الرجل المصالح ، وقد رشح للاضطلاع بالمهمة أبي عباس أو مالكاً الأشتر .
٣ ـ أصل التحكيم صحيح وليس خطأ . وهذا ما أصر عليه عليّ(ع) أيضاً .
يقول أبو العباس المبرد في (الكامل في اللغة والأدب) ج٢ ص١٣٤ ما خلاصته : =

= لقد جادل عليّ(ع) الخوارج بنفسه ، وحلّفهم أنه كان هو أشـدهم معارضـة للتحكيم ، فأيدوا قوله .

فقال لهم : ألم تحملوني على القبول ؟ فقالوا : اللهم بلى .

فقال : لماذا إذن تخالفوني ؟ فقالوا : لقد اقترفنا ذنباً عـظيماً فكـان لا بد من التوبة ، فتبنا ، فتب أنت أيضاً .

فقال : أستغفر الله من كل ذنب . فعاد الجمـع وهم من ستة آلاف نفـر ، وقالوا : لقد تاب علي ، وها نحن ننتظر أمره بالتحرك نحو الشام .

فجاءه أشعث بن قيس وقال : يقـول الناس : إنـك ترى التحكيم ضـلالاً والتزامه كفراً . فقام الإمام وصعد المنبر وقال : من يظنني رجعت عن التحكيم فقد أخطأ الظن ، ومن يراه ضلالاً فهو أضل سبيلا . فقام الخوارج وغادروا المسجد وثاروا على عليّ عليه السلام .

يقول الإمام علي(ع) : ان هذا التحكيم كان خطأ لأن معاوية واصحابه كانوا يريدون المكر والتوسل بالحيلة ، ولأن أبا موسى لم يكن على قدر المهمة ، وقلت لكم هذا منذ البداية فرفضتم . إلا أن هذا لا يعني أن التحكيم إجراء باطل .

* * *

لم يكنْ الخوارج يعترفون بوجود فرق بين حكومة القرآن وحكومة الأفراد . إن قبول حكومة القرآن يعني اتباع ما يقول به القرآن في ما يحدث من حوادث . إلا أن قبـول حكـومـة الأفـراد يعني اتبـاع آراء أولئـك الافـراد وأحكـامهم ونظرياتهم . وبما ان القرآن لا يتكلم ، فلا بد من استنباط حقائقه بإعمال النظر والفكر ، وهذا ما لا يكون إلا عن طـريق الأفراد . وفي هـذا يقول الإمـام علي(ع) نفسه :

« إنا لم نحكم الرجال وإنما حكمنا القرآن ، وهذا القرآن انما هو خط مسطور بين الدفتين ، لا ينطق بلسان ولا بد له من ترجمان ، وإنما ينطق عنه الرجال . =

= ولما دعانا القوم إلى أن نحكّم بيننا القرآن لم نكن الفريق المتولي عن كتاب الله .
وقد قال سبحانه : ﴿فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول﴾ فرده إلى الله إن نحكم بكتابه ، ورده الى الرسول ان نأخذ بسنته . فإذا حكم بالصدق في كتاب الله فنحن أحق الناس به . وإن حكم بسنة رسول الله فنحن أولى بهم . » . (نهج البلاغة : الخطبة ١٢٣)

هنا يتبادر للذهن تساؤل . فبحسب اعتقاد الشيعة وبرأي الإمام نفسه (نهج البلاغة : آخر الخطبة ٢) تكون الإمامة ويكون الحكم في الإسلام أمراً انتصابياً وبموجب النص . فلماذا خضع الإمام للتحكيم ، ومن ثم راح يدافع عنه بشدة ؟

إن الجواب على هذا التساؤل يتبين واضحاً في هذا الذي سبق من خطبة الإمام (ع) : فإذا حكم بالصدق في كتاب الله فنحن أحق الناس به ، وإذا حكم بسنة رسول الله فنحن أولاهم به .

الفرق الإسلامية وتأثر بعضها في بعض

تنفعنا دراسة أحوال الخوارج في معرفة مدى الأثر الذي خلفوه في التاريخ الإسلامي من حيث السياسة والعقيدة والذوق والفقه وسائر الأحكام .

إن مختلف الفرق والنحل ـ وإن تكن منفصلة عن بعض من حيث الشعارات ـ قد تتأثر أحياناً بروح المذاهب الأخرى وتحل فيها روح مذهب من المذاهب ، فتتقبل الفرقة روح ذلك المذهب ومعناه ، على الرغم من أنها تخالفه ، فالسرقة في طبيعة الإنسان .

فقد نجد مثلاً رجلاً سني المذهب شيعياً في روحه ومفاهيمه . وقد نجد العكس أيضاً . فيكون الشخص بطبيعته متديناً وظاهرياً ولكنه صوفي في روحه ، وقد يكون العكس . فمن الممكن أن يكون بعض الناس من الشيعة في الشعار والانتحال ، ومن الخوارج في الروح والعمل . وهذا يصدق على الأفراد كما

= يصدق على الأمم والملل .

إذا تجاورت النحل وتعاشرت تبادلت العقائد والأذواق ، وإن تباعدت في شعاراتها . من ذلك مثلاً سريان عادة (التطبير) - أي ضرب الرؤوس بالسيوف والقامات - وضرب الطبول والنفخ في الأبواق من المسيحيين الأرثوذوكس القفقازيين إلى ايران وانتشرت فيها انتشار النار في الهشيم ، بسبب استعداد النفوس والروحيات لتقبلها .

لذلك ينبغي أن نتعرف على روحيات مختلف الفرق . فقد تكون فرقة وليدة حسن الظن ، فيلزم أن تتبع معهم قول القائل « **ضع فعل أخيك على أحسنه** » كأهل السنة الذين يحسنون الظن بالأشخاص ، فهم لا بد أن ينتقدوا فرقة وليدة منظور خاص وتولي اهتماماً كبيراً للأصول الإسلامية ، لا بالأفراد أو الأشخاص ، كالشيعة في الصدر الأول من الإسلام . وثمة فرقة تعنى بالباطن والتأويل الباطني كالمتصوفة ، وفرقة أخرى وليدة التعصب والجمود الفكري كالخوارج .

فإذا عرفنا روحية كل فرقة وحوادثها التاريخية الأولى ، كان حكمنا أصدق في ماهية العقائد والأفكار التي تسربت من فرقة إلى أخرى خلال القرون ، وعلى الرغم من الاحتفاظ بشعاراتها الخاصة ، تقبلت روحية الفرق الأخرى .

إن العقائد والأفكار أشبه - في هذا الباب - باللغات التي تسري من لغة إلى أخرى بغير أن يتعمد أحد ذلك ، كالذي حصل بعد أن فتح العرب المسلمون إيران ، فدخلت كلمات عربية إلى اللغة الفارسية ، كما حصل العكس ودخلت بضعة آلاف من الكلمات الفارسية إلى اللغة العربية ، كذلك اللغة التركية على عهد المتوكل والأتراك السلاجقة والمغول وغيرها من اللغات . وهكذا كان تنافذ الأذواق والميول .

إن أسلوب تفكير الخوارج وعقليتهم - الجمود الفكري وفصلهم التعقل عن

التدين ـ اندس في المجتمع الإسلامي بمختلف الصور على امتداد تاريخ الإسلام . وعلى الرغم من أن الفرق الأخرى كانت تعتقد أنها تخالف الخوارج ، إلا أننا نجد أن روحية هؤلاء قد وضعت بصمتها على طراز تفكيرهم ، وما هذا سوى الذي قلناه عن طبيعة اللصوصية في الإنسان والتي ساعد على تفشيها التجاور والمخالطة .

لقد كان من سلوك المتأثرين بالخوارج أنهم حملوا شعار مناوءة كل شيء جديد وما زالوا كذلك . بل إنهم يصبغون وسائل الحياة المادية والأشكال الظاهرية ـ التي قلنا أنها لا قدسية لها في الإسلام ـ بصبغة قدسية ، ويعتبرون الاستفادة من كل جديد كفراً وزندقة .

إننا نعثر بين المدارس الفكرية والعقائدية والعلمية والإسلامية والفقهية على مدارس هي وليدة الروح القائلة بفصل التعقل عن التدين ، وهي مدارس يتجلى فيها فكر الخوارج بكل وضوح ، فتطرد كل فكرة عن اعتماد العقل للكشف عن الحقائق ووضع القوانين الفرعية ، وتقول : إن اتباع هذا الأسلوب بدعة وخروج عن الدين ، مع أن القرآن نفسه يحث الإنسان في كثير من آياته على التعقل ويرى في التبصر سنداً للدعوة الإلهية .

إن المعتزلة الذين ظهروا في أوائل القرن الثاني الهجري ، نشأوا على أثر البحث والتعمق في تفسير معنى الكفر والإيمان ، وهل أن ارتكاب الكبيرة يوجب الكفر أم لا . وكان ظهورهم شديد الأرتباط بظهور الخوارج من قبل . كان المعتزلة جماعة تريد أن تفكر بحرية وإيجاد حياة عقلية . وعلى الرغم من أنهم كانوا يفتقرون إلى المبادىء العلمية وأصولها ، فإنهم أخضعوا المسائل الإسلامية إلى قدر من الحرية في الدرس والتمحيص ، فراحوا يفندون بعض الأحاديث ، ولا يقبلون إلا الآراء والنظريات التي تحققوا منها واجتهدوا فيها .

لقد واجه هؤلاء منذ البداية المعارضة والمقاومة من لدن أهل الحديث ومتبعي

الظاهر الذين كانوا يرون ظاهر الحديث هو المعول عليه ، بغض النظر عن معنى الحديث والقرآن وروحهما ، ولم يكونوا يعترفون بأية قيمة لحكم العقل الصريح ، بل كل القيمة التي كانوا يقولون بها للعقل إنما كان ينحصر في قيمته لتوكيد الظاهر .

خلال قرن ونصف من حياة مدرسة المعتزلة العقلية كانوا في إسار تذبذبات عجيبة ، إلى أن ظهر الأشاعرة الذين أنكروا كليا قيمة الأفكار العقلية المحضة والمقولات الفلسفية الخالصة . قالوا : إن من المفروض على المسلمين أن يتعبدوا على وفق ما جاءهم في ظاهر الأحاديث المنقولة ، بغير أن يتعمقوا في التفكير في المعاني أو تدبرها ، وكل تساؤل وأخذ ورد بدعة .

كان الإمام أحمد بن حنبل ، أحد أئمة أهل السنة الأربعة ، يخالف أسلوب تفكير المعتزلة أشد المخالفة ، بحيث أنه سجن وجلد من جراء ذلك ، ولكنه لم ينثن عن مخالفته لهم .

وفي النهاية انتصر الأشاعرة وطوي بساط التفكير العقلي ، وكان هذا الانتصار ضربة شديدة وجهت إلى الحياة العقلية في الأسلام .

كان الأشاعرة يعتبرون المعتزلة من أصحاب البدع . يقول أحد شعرائهم بعد انتصارهم على المعتزلة :

ذهبت دولة أصحاب البدع
ووهى حبلهم ثم انقطع
وتداعى بانصراف جمعهم
حزب إبليس الذي كان جمع
هل لهم يا قوم في بدعتهم
من فقيه أو إمام يتبع ؟

(«المعتزلة» زهري جار الله ، ص١٨٥)

لم يكن الخوارج يرون سائر المسلمين مسلمين بسبب قصر نظرهم ، فحرموا ذبائحهم ، وأهدروا دماءهم ، ولم يتزاوجوا معهم .

: والأخباريون أيضاً ، وهم من أصحاب مدرسة فقهية شيعية بلغوا أوج ازدهارهم في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين ، كانوا قريبين من الظاهريين وأهل الحديث من أهل السنة ، ومن حيث السلوك الفقهي فكلتا المدرستين تسلكان سلوكاً واحداً ، وإنما يقتصر اختلافهما على الأحاديث التي يجب أن تتبع ، فكلتاهما تدينان بانفصال التعقل عن التدين .

لقد عطل الأخباريون عمل العقل تعطيلاً تاماً ، واسقطوا الإدراك العقلي من كل قيمة في استخراج الأحكام الإسلامية من النصوص ، واعتبروا اتباع العقل حراماً ، وهاجموا في مؤلفاتهم الأصوليين - وهم أصحاب المدرسة الفقهية الشيعية الأخرى - هجوماً شديداً ، وقالوا : إن الحجة هي الكتاب والسنة فقط ، وبديهي أنهم كانوا يعتمدون الكتاب عن طريق التفسير في السنة والحديث ، فهم في الحقيقة قد اسقطوا القرآن من كونه حجة ، مكتفين باتباع ظاهر الحديث .

إننا لسنا الأب بصدد بحث أساليب الفكر الإسلامي وتتبع المدارس التي تتبع الخوارج في الفصل بين التعقل والتدين ، لأنه بحث واسع متشعب . وإنما كل ما نرمي إليه هنا هو الإشارة الى تأثير الفرق بعضها في بعض ، وتبيان أن مذهب الخوارج الذي لم يدم طويلاً قد بقيت بصماته خلال القرون والعصور الإسلامية حتى الوقت الحاضر الذي نرى فيه عدداً من الكتاب والمفكرين المعاصرين في دنيا الإسلام يتبنون أسلوب تفكيرهم بعد تحديثه وربطه بالفلسفة الحسية الحديثة .

سياسة رفع المصاحف

إن سياسة (**رفع القرآن على الرماح**) ما زالت رائجة بين المسلمين منذ ثلاثة عشر قرناً . وعلى الأخص كلما كثر المتقدسون والمتظاهرون وراجت سوق التظاهر بالزهد والتقوى ، وكثر من ناحية أخرى المستفيدون من سياسة رفع المصاحف . فالدروس التي يجب أن نستخلصها من ذلك هي :

أ ـ الدرس الأول هو أنه حينما يعتبر الناس الجهال والمغفلين أنهم هم الذين يمثلون التدين والتقوى ، ويتخذونهم نماذج للإسلام فعلاً ، يصبح هؤلاء أداة طيعة بيد الأذكياء النفعيين ، فيتخذونهم سداً منيعاً ضد المصلحين الحقيقيين وأفكارهم .

وكثيراً ما لوحظ أن العناصر المناوئة للإسلام تستغل هذه الأداة ، أي إنها توجه قدرة الإسلام نفسه ضد الإسلام . .

إن الاستعمار الغربي جرب هذه الوسيلة مرات عديدة ، وما يزال يستغلها لتحريك أحاسيس المسلمين الكاذبة لغرض إيجاد التفرقة بين المسلمين لمصحلته الخاصة .

ما أشده مدعاة للعار أن ينبري مسلم مخلص لطرد الأجانب ، مثلاً ، والتخلص من نفوذهم ، فيقوم أولئك الذين يريد إنقاذهم باختلاق الذرائع والحجج الدينية لوضع سد قوي أمامه !. نعم ، إذا كان سواد الناس جاهلاً وغافلاً ، فإن المنافقين يستغلون خنادق الإسلام نفسها لمحاربة الإسلام .

ففي إيراننا هذه حيث يفتخر الناس بمحبة آل البيت الأطهار ، يقوم المنافقون باستغلال اسم أهل البيت المقدس ، ويتخذون من (**الولاء لآل البيت**) المقدس خندقاً يحاربون منه القرآن والإسلام وآل البيت لمصلحة اليهود الغاصبين . وهذا أفظع أنواع الظلم بحق الإسلام والقرآن والنبي الكريم وأهل بيته الكرام .

قال رسول الله (ص) :

« **إني ما أخاف على أمتي الفقر ، ولكن أخاف عليهم سوء التدبير** » .

ب ـ الدرس الثاني هو أن علينا أن نسعى لكي تكون استنباطاتنا من القرآن صحيحة . فالقرآن لا يكون هادياً ومرشداً

إلا إذا صح تدبره ، وصدق تفسيره ، واسترشد بهداية آل القرآن الراسخين في علوم القرآن . فما لم يكن أسلوب استنباطنا من القرآن صحيحاً ، وما لم نتعلم طريقة الاستفادة من القرآن ، لا يمكن أن ننتفع به . إن النفعيين أو الجهال قد يقرأون القرآن ولكنهم يسيرون وراء الاحتمال الباطل . لقد سمعتم قول (نهج البلاغة) في أن كلمتهم (كلمة حق أريد بها باطل) فهذا ليس إحياء للقرآن وعملاً به ، بل هو إماتة القرآن . إن العمل بالقرآن لا يكون إلا عندما نفهمه فهماً صحيحاً .

إن القرآن يعرض الأمور عرضاً كلياً ومبدئياً ، ولكن الاستنباط وتطبيق الكلي على الجزئي لا يكون إلا بفهمنا إياه فهماً صحيحاً . فمثلاً ، لم يذكر في القرآن أن الحرب الفلانية التي سوف تقع بين علي ومعاوية يكون الحق فيها مع عليّ . إن كل ما جاء في القرآن هو :

﴿ وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ﴾[1] .

هذا هو القرآن وأسلوب بيان القرآن . إنه لا يقول : إن

---

(١) سورة الحجرات ، الآية ٩ .

الحق مع فلان في الحرب الفلانية ، وإن فلاناً على باطل . إن القرآن لا يذكر الأسماء والأفراد . إنه لا يقول بعد أربعين سنة أو أكثر أو أقل سوف يظهر رجل اسمه معاوية ويحارب علياً ، فعليكم أن تحاربوا مع علي . إن القرآن لا يدخل في التفاصيل ولا يعدد الحوادث ولا يضع إصبعه على الحق والباطل .

ليس هذا بالإمكان ، فقد جاء القرآن ليبقى دائماً وأبداً ، فليس عليه إلا أن يبين الأصول والكليات بحيث أنه كلما تقابل حق وباطل في أي عصر من العصور استطاع الناس أن يعملوا ـ وفق مقاييس تلك الكليات والأصول ـ أن الأمر يعود إلى الناس لكي يفتحوا عيونهم ليروا ما ينبغي أن يفعلوه وفق مبدأ ﴿ **وان طائفتان اقتتلوا** . . . ﴾ فيميزوا الفرقة الباغية من غير الباغية ، وإذا ما فاءت الباغية إلى أمر الله قبلوا منها ذلك ، وإذا ركبت رأسها وتحايلت لإنقاذ نفسها من السقوط لكي تتحين فرصة أخرى للهجوم وتبغي مرة أخرى ، وتتظاهر بقبول القول ﴿ **فإن فاءت فأصلحوا بينهما** ﴾ فلا تنخدعوا بمكرها .

إن التعرف على كل هذا يعود إلى الناس أنفسهم . إن القرآن يريد للمسلمين الرشد العقلي والاجتماعي ، لكي يستطيعوا أن يميزوا بين رجل الحق ورجل الباطل . إن القرآن لم يأت لكي يبقى دائماً بالنسبة للناس كولي على القاصرين

فيعاملهم كما يعامل الولي الصغير القاصر ، فيدبر أموره الصغيرة ضمن قيموميته ، ويعين له ما يفعل في كل حالة من الحالات .

إن معرفة الأشخاص ودرجة صلاحيتهم ولياقتهم ومدى تمسكهم بالإسلام وبالحقائق الإسلامية إنما هي ـ من حيث المبدأ ـ واجب ، ولكننا غالباً ما نغفل عن هذا الواجب الخطير .

يقول علي (ع) :

« **إنكم لن تعرفوا الرشد حتى تعرفوا الذي تركه** »[1] . أي إن معرفة الأصول والكليات لا تنفع وحدها حتى تطبق على مصاديقها ومفرداتها ، إذ يمكن بالخطأ في معرفة الأشخاص وبعدم إدراك الموقف أن تعملوا باسم الحق وباسم الإسلام وتحت الشعارات الإسلامية ، ما هو ضد الإسلام ، وما هو ـ في الحقيقة ـ لمصلحة الباطل .

لقد ذكر القرآن الظلم والظالم والعدل والحق ، ولكن ينبغي معرفة مصاديقها بحيث لا نرى الظلم عدلاً ، والعدل ظلماً ، ومن ثم نقضي على العدالة والحق ونحن نحسب أننا نطبق الكليات بحكم القرآن .

---

(١) (نهج البلاغة) الخطبة ١٤٧ .

ضرورة محاربة النفاق

إن من أشق الأمور محاربة النفاق ، لأننا في الحقيقة نحارب الأذكياء الذين يستغلون أولئك الحمقى . إن هذه الحرب أصعب من محاربة الكفر أضعافاً ، لأن محاربة الكفر حرب مكشوفة وظاهرة لا خفاء فيها ، أما الحرب مع النفاق فإنها حرب مع الكفر المستور .

إن للنفاق وجهين ، وجه ظاهر هو الإسلام ، ووجه باطن هو الكفر . إن معرفة ذلك من أشق الأمور على عامة الناس ، وقد لا يكون ممكناً لهم ، ولذلك فإن الكفاح ضد النفاق كثيراً ما يؤول إلى الإخفاق ، لأن العامة لا يتعدى شعاع إدراكهم الظاهر ، فلا يضيء الباطن الخفي لأنه ليس بعيد الغور ولا ينفذ إلى الأعماق .

يقول الإمام علي (ع) في رسالته إلى محمد بن أبي بكر :

« ولقد قال لي رسول الله : إني لا أخاف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً . أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه ، وأما المشرك فيقمعه الله بشركه ، ولكني أخاف عليكم كل منافق الجنان عالم اللسان ، يقول ما يعرفون ويعمل ما تنكرون »[١] .

هنا يعلن رسول الله (ص) يعلن الخطر من جهة النفاق والمنافقين ، وذلك لأن عامة أفراد الأمة غافلون وتخدعهم الظواهر[٢] .

---

(١) (نهج البلاغة) الرسالة ٢٧ .

(٢) لهذا نجد على امتداد التاريخ الإسلامي أنه كلما قام مصلح يعمل لإصلاح حالة الناس الاجتماعية والدينية ، معرضاً منافع المستغلين والظالمين للخطر . بادر أولئك إلى ارتداء لبوس التقدس والتقوى والتدين .

إن المأمون العباسي المعروف بمجونه وإسرافه بين رجال السلطة في التأريخ ، عندما يرى أن العلويين قد نهضوا ، يرتدي جبة مرقعة ويحضر الاجتماعات بها ، بحيث أن أبا حنيفة الأسكافي الذي لم يصله من المأمون دينار ولا درهم ، يثني عليه ويمتدحه على عمله .

وقد التمس آخرون ـ كل بشكل من الأشكال ـ سياسة (رفع المصاحف) المخربة ، فأفسدوا كل الأتعاب والتضحيات وخنقوا الانتفاضات في مهدها .

وما هذا سوى جهل الناس وضلالهم لأنهم لم يستطيعوا التمييز بين الشعارات والحقائق ، وبهذا أغلقوا على أنفسهم أبواب النهضة والإصلاح ، ثم استيقظوا بعد أن انهارت كل المقدمات ولم يكن بد من السير في الطريق من أوله .

إن من بين الأمور العظيمة التي نتعلمها من سيرة علي(ع) هو أن نضالاً من هذا القبيل لا يختص بجماعة دون أخرى ، بل حيثما كان المسلمون واولئك الذين

ولا بد من القول أنه كلما كثر عدد الحمقى كانت سوق النفاق أكثر رواجاً . إن المبارزة مع الأحمق والحماقة مبارزة مع النفاق أيضاً ، لأن الأحمق آلة بيد المنافق ، إذ لا ريب في أن مكافحة الحماقة والحمقى يعتبر نزع سلاح المنافق وتركه أعزل .

يتزيون بزي الدين ، كان هؤلاء وسيلة نفوذ الأجانب وأداة تحقيق أهداف الاستعمار والمستعمرين ، ولضمان مصالحهم يتترسون بهؤلاء ويتحصنون بهم ، بحيث أن النضال ضد المستعمرين غير ممكن إلا بالقضاء على تلك التروس والحصون . فيجب أولاً مكافحة تلك التروس والقضاء عليها لإزالة العقبات من طريق الهجوم على قلب العدو .

ولعل إثارة معاوية الخوارج للإفساد والتخريب كانت نافذة ، وعلى ذلك فإن معاوية ، أو في الأقل ، أمثال أشعث بن قيس من العناصر المخربة والمشاغبة ، قد تترست منذ ذلك اليوم ـ أيضاً ـ بالخوارج .

إن تاريخ الخوارج يعلمنا أنه في كل نهضة يجب في البداية القضاء على التروس والحصون ومحاربة الحماقات ، كما فعل علي (ع) بعد التحكيم ، إذ بادر إلى محاربة الخوارج أولاً ، بقصد مواجهة معاوية بعد ذلك .

إن كيان علي برمته ، وتاريخه وسيرته ، وأخلاقه ، وصبغته وريحه ، وكلماته وأقواله ، كلها دروس وتعـاليم ونماذج لـلإقتداء وللقيادة .

وكما أن جواذب علي (ع) تعتبر دروساً تعليميـة لنا ، فـإن قـوة دفعه كـذلك أيضـاً . إننا في الأدعيـة التي نتلوها عنـد زيارة مـرقد الإمـام علي (ع) وسائـر الأئمة الأطهـار ونردد أننـا نحب محبيهم ونعادي أعداءهم . إن التفسيـر الآخر لهـذا القول يشيـر إلى أننا نتوجه إلى حيث مدار جوّك الجاذب ، ونبتعـد عن مدار قوتك الدافعة .

إن مـا قلناه في المـواضيع السـالفة تنـاول جانبـاً من قـوى الجـذب والدفـع عند علي (ع) ، وقـد اختصرنـا الكـلام على دافعتـه خصوصـاً ، ولكن تبين مما قلنـاه أن عليـاً قـد دفـع عنـه

طبقتين اثنتين دفعاً شديداً :

١ ـ المنافقين الأذكياء .

٢ ـ الزهاد الحمقى .

إن هـذين الدرسين يكفيـان مدعي التشيـع ليحمـلاهم على فتح أعينهم لئلا ينخـدعوا بـالمنافقين . على أبصـارهم أن تكون حـديدة فتتجـاوز النظر إلى الـظاهر ، فمجتمـع التشيـع والعصـر الحاضر قد ابتلي بهذين الداءين أشد ابتلاء .

والسلام على من اتبع الهدى

الفهرس

الموضوع . . . . الصفحة

مؤسسة البعثة

مؤسسة ثقافية تعنى بشؤون التأليف والتحقيق والترجمة والطباعة والنشر ، بما يلبي حاجة القارىء المسلم أين ما وجد ، لذا تنوعت منشوراتها لتشمل لغات عدة ، منها : الانكليزية ، الفرنسية ، الأوردية ، الكردية ، وغيرها ،

ومستعدة « مؤسسة البعثة ـ بيروت » بتأمين طلبات دور النشر من احتياجاتهم للكتب المطبوعة في لبنان وخارجها ومستعدة أيضاً للتعاون الفعال مع كافة الفعاليات الثقافية في العالم العربي والإسلامي ، إذ هي لبنة من تلكم اللبنات التي يعول عليها المشاركة الجادة في تطوير حركة الكتاب ، وصولاً إلى بناء فكري متطور يبتني على المنهج الثقافي السليم .

صدر من منشوراتنا :

١ ـ فاطمة الزهراء (ع) المرأة النموذجية في الإسلام .	إبراهيم الأميني
٢ ـ جولة في سيرة الأئمة (ع)	مرتضى مطهري
٣ ـ الفطـرة	مرتضى مطهري
٤ ـ الإمام علي (ع) في قوتيه الجاذبة والدافعة .	مرتضى مطهري
٥ ـ السيرة النبويـة .	مرتضى مطهري
٦ ـ الإنسان الكامـل .	مرتضى مطهري
٧ ـ آية الكرسي نداء التوحيد السماوي	محمد تقي الفلسفي

وسيصدر قريباً :

ـ مؤلفات الخطيب . محمد تقي الفلسفي .

ـ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل . للأستاذ ناصر مكارم الشيرازي ، في عشرين جزءاً .

ـ موسوعة مستدركات سفينة البحار .